اضواء على مشكل التعليم بالمغرب :

2 ـ نتائج و مقدمات

للدكتور : محمد عابد الجابرى

سبق أن أكدنا فى الحلقة الماضية (I) من هذه الدراسة على أن الفهم الصحيح لمشكل التعليم ، كما تعانى منه بلادنا اليوم ، يتطلب تعرية جذوره والكشف عن طبيعة هياكله وحقيقة المضامين التى يحملها ، سواء منها تلك التى ورثها من الوضعية العامة التى سادت فى مغرب ما قبل الحماية ، او تلك التى حملتها اياه سلطات الحماية نفسها .. وكنا قد اشرنا الى ان القيام بهذه المهمة يمكن أن يتخذ احدى سبيلين ، أو كلتيهما معا : الاولى : البحث عن المبادىء والاسس النظرية التى اقامت عليها الحماية تعليمها فى المغرب ، وذلك بالاعتماد على الوثائق التى تكشف عن نوايا اصحابها وتعرض مخططاتهم مع كل ما تحمله من مضامين اجتماعية وسياسية وايديولوجية ، وهذه هى السبيل التى سلكناها فى الحلقة الماضية. اما السبيل الثانية ، وهى التى نعتزم سلوكها فى هذه الحلقة ، فهى محاولة الكشف عن تلك الاسس والمضامين من خلال استعراض الوقائع ، اى من خلال دراسة النتائج التى انتهى اليها تعليم الحماية الفرنسية فى بلادنا ، تلك النتائج التى تشكل بطبيعة الحال ، المقدمات التى قام عليها تعليمنا الحالى ، والتربة التى نبت فيها المشكل الذى نتحدث عنه ، مشكل التعليم فى مغرب الاستقلال.

I ـ اقلام ـ العدد 2 ـ 3 يونيه ـ يوليوز 1972

يتعلق الامر اذن ، في هذه الحلقة ، بدراسة حصيلة انواع التعليم التي تواجدت اثناء الحماية ، سواء منها ما كان قائما قبلها واحتفظت به بشكل من الاشكال ، او ما اقامته الحماية نفسها ليكون « التعليم الرسمي » الذي يخدم عادة ايديولوجية السلطات الحاكمة ومصالحها الاقتصادية والسياسية ، او ما انشاته الحركة الوطنية ليكون بمثابة النقيض لذلك « التعليم الرسمي » ، نقيضه السياسي والايديولوجي خاصة .

ولعله من نافلة القول ، التأكيد هنا ، على اننا لا نهدف من وراء استعراض حصيلة عمل فرنسا التعليمي في المغرب ، الى ادانة الحماية الفرنسية من جديد ، في ميدان عرفت الحركة الوطنية المغربية كيف تشهر به وتركز عليه عملها الدعائي — السياسي في الداخل والخارج ، خلال نضال شعبنا ضد الحكم الاستعماري . كما انه من المفيد الاشارة هنا الى اننا لا نرمي الى التاريخ للتعليم بالمغرب تأريخا يتتبع مراحله وجزئياته وتفاصيله ، وانما نريد فقط ، من محاولتنا هذه ، ابراز بعض الحقائق والملاحظات الاساسية التي تثبت ان الحماية الفرنسية قد طبقت فعلا ، وبكيفية اجمالية ، مخططها التعليمي الذي كشفنا عن اهم جوانبه في الحلقة الماضية ، **وبالتالي ابراز حقيقة الاطار العام ، الاجتماعي والسياسي والايديولوجي ، الذي تحرك ضمن حدوده تعليمنا الراهن منذ الاعلان عن الاستقلال الى اليوم** . ان الكشف عن هذا الاطار العام لهو من الاهمية بمكان بالنسبة لفهم واقعنا التعليمي الراهن ، شكلا ومضمونا ، وبالتالي لفهم الابعاد الحقيقية السياسية والاجتماعية والفكرية ، لهذا المشكل المزمن ، مشكل التعليم .

— ● —

تكتسي كل من سنة 1930 وسنة 1944 اهمية خاصة بالنسبة لتاريخ المغرب الحديث . انهما تشكلان ، كلا على حدة ، نقطة تحول هامة . ان سنة 1930 هي السنة التي اختارها الفرنسيون للاعلان

عن الشروع فى تطبيق مخططهم الاستعمارى ـ الظهـير البربرى ـ الذى كان يهدف الى النيل بكيفية مباشرة وخطيرة من الكيان المغربى ، الاجتماعي والسياسى والديني والثقافي ، وذلك بالفصل فى سكان المغرب ، بين ما كانت تسميه سلطات الحماية « العنصر العربى » من جهة و « العنصر البربرى » من جهة ثانية ، فصلا حضاريا شاملا ، كان المقصود منه فرنسة القسم الاكبر من الشعب المغربى ، هذا القسم الذى لم يكن قد استسلم بعد بكيفية نهائيـة لسلطات الاحتلال .

لم يكن الظهير البربرى فى واقع الامر ، **الا التعبير القانوني** لسياسة دأب دهاقنة الاستعمار الفرنسى على التخطيط لها منذ ان عقدوا العزم على احتلال المغرب ، اى منذ أواخر القرن الماضى ، وبكيفية خاصة منذ اوائل هذا القرن .

نعم ، ان صدور هذا الظهير عام 1930 كان فى الحقيقة والواقع بمثابة **ورقة الوفاة** التى سجلت موت ذلك المخطـط الاستعمارى وهو فى مهده ، وورقة الميلاد التى اعلنت عن قيام الحركة الوطنية المغربية ، ولكن مع ذلك ، فان ما عرف بـ « السياسة البربرية » الفرنسية ، قد خلفت آثارا لا يجوز اهمالها ، خصوصا عندما يتعلق الامر بالميدان الذى يهمنا هنا ، ميدان الثقافة والتعليم .

لقد عمدت الحماية الفرنسية ، فى هذا الميدان ، الى انشاء ما اسمته بـ « **المدارس الفرنسية ـ البربرية** » ، وهـى المدارس التى كان الهدف منها انشاء جيل مقطوع الصلة تماما بالتـراث العربى الاسلامى من جهة ، وممتشبع ، اكثر ما يمكن ، بالتراث الفرنسى والقيم الحضارية الغربية المسيحية ، مما يمهد الطريق لعملية واسعة النطاق ، عملية استيعاب الشعب المغربى ، وجعله سياسيا وحضاريا تابعا الى الابد لفرنسا باعتباره ذيلا من ذيول الحضارة الغربية المسيحية .

وحتى ناخذ فكرة واضحة عن الاهداف الحقيقية التى كانت الحماية الفرنسية تتوخاها من وراء هذه المدارس ، نترك الكلمة مرة أخرى للمسيو مارتي يحدثنا عنها بالصراحة التي عهدناها فيه من قبل . لقد تعرض الى هذا النوع من المدارس بتفصيل ، فبين أصول نشأتها والاهداف المتوخاة منها : هو يشرح اولا ، كيف ان هذه المدارس (المدارس الفرنسية-البربرية) قد تولى فتحهـــا اول الامر ، في البادية المغربية وبكيفية خاصة في المناطق الجبلية ، جهاز الاحتلال العسكرى من ضباط وكتاب في القيادة العامة للجيش الفرنسي وباشراف المكلفين بالحرب السيكولوجية ، مما جعل هذه المدارس تنتمى في اول امرها الى « الانظومة الاستعمارية ، انظومة حرف (د) التى تسبق التنظيم المنسق » . وهذا يعنى بكامل الوضوح ان هذه المدارس كانت عند نشأتها عنصرا من عناصر عملية الاحتلال العسكرى ، عنصرها السيكولوجي بكيفية خاصة : « **ان المدفع يدفع الثوار ، والمدرسة تجلب السكان** » . كان ذلك هو شعار دهاقنــة الاستعمار الفرنسي والمخططين لسياسة الاحتلال .

هذا من حيث نشأة هذه المدارس ، اما من حيث تحولها الى عنصر اساسي في السياسة البربرية التى بدأت تطبقها سلطـــات الحماية منذ بداية العشرينات من هذا القرن ، بعد ان احرز جهازها العسكرى على تقدم واسع في عملية الاحتلال ، فان المسيو مارتي يحدثنا عن ذلك بصراحة ووضوح ، فيقول :

« فلقد حصل الاتفاق بين ادارة التعليـم العمــومي وادارة الشؤون الاهلية ، وتحددت بذلك مبـادىء سياستـنا التعـليميــة البربرية ، بكامل الدقة . ان الامر يتعلق هنا بمدارس فرنسيــة ـ بربرية ، مدارس تضم صغار البربر ، يتلقون فيها تعليما فرنسيا محضا ، ويسيطر عليها اتجاه مهنى ، فلاحي بالخصوص . ان البرنامج الدراسي في هذه المدارس يشتمل على دراسة تطبيقيــة للغة الفرنسية ، لغة الحديث والكلام ، بالاضافة الى مبادىء الكتابة

والحساب البسيط ونتف من دروس الجغرافية والتاريخ وقواعد النظافة ودروس الاشياء ... **ان المدرسة الفرنسية ـ البربرية هي اذن ، مدرسة فرنسية بالتعليم والحياة ، بربرية بالوسط والانتساب. هي فرنسية بالمعلمين ، بربرية بالتلاميذ . وليس هناك اى مجال لاى وسيط اجنبي . ان اى شكل من اشكال تعليم العربية ، ان اى تدخل من جانب الفقيه ، ان اى مظهر من المظاهر الاسلامية ، لن يجد مكانه في هذه المدارس ، بل سيقصى منها جميع ذلك بكـــل صرامـة ..»**

بعد هذا التحديد الواضح لهوية هذه المدارس ينتقل المسيو مارتي الى شرح مراحل تنفيذ المشروع الخاص بها ، وهو مشروع تمت المصادقة عليه من طرف سلطات الحماية في اواخر شهر ماى سنة 1923 . وهنا يشير الى ان « الضابط الذى تكلـف بتطبيـق المشروع قد اسعده الحظ لكونه كان معززا فى مهمته ، خطوة خطوة بواحد من المع المختصين فى الشؤون الاسلامية وفى الاستشراق الفرنسي ، الا وهو المسيو « لوى ماسينيون » الاستاذ بالكوليج دى فرانس ».

لقد بدأ تطبيق المشروع فى الحين ، فانشئت عدة مدارس من هذا النوع فى اكتوبر من السنة نفسها (سنة 1923) في عدة مناطق من جبال الاطلس ، خاصة فى ايموزار ، ووعين الشكاك بناحية فاس ، وازرو وعين اللوح بناحية مكناس ، وخنيفرة والقباب ، بالاضافة الى مدرسة هرمومو بناحية تازة . « **والخلاصة هى ان هذه المدارس الفرنسية البربرية ستكون اجهـزة لتطبيـق السياسـة الفرنسية ومراكز للدعاية .. »**

هذا والجدير بالاشارة هنا ، ان هذه السياسة البربرية التى خطط لها على مستوى المدارس الابتدائية - قد خطط لها كذلك على مستوى الدراسة الثانوية و « التعليم العالى » . فبالنسبة للدراسة

الثانوية نشير الى ثانوية ازرو التى اسست عام 1927 كمدرسة جهوية « فى المناطق الثائرة » والتى تحولت الى ثانوية ابتداء من عام 1931 . (لقد ظلت هذه الثانوية خاصة بابناء القبائل الاطلسية حيث كانوا جميعهم داخليين يختارون بكل عناية ، وذلك الى حدود سنة 1948) . اما بالنسبة للتعليم العالى فقد تم انشاء « معهد الدراسات المغربية العليا » بالرباط الذى تحول غداة الاستقلال الى كلية الاداب . لقد اسس هذا المعهد عام 1914 تحت اسم : « المدرسة العليا الفرنسية ـ البربرية » ثم تحول سنة 1920 الى « معهد الدراسات المغربية العليا حيث احتلت دراسة اللهجات البربرية والاتنوغرافيا والفولكلور المغربى مكان الصدارة فيه ..»

تلك ، باختصار ، المدارس الفرنسية ـ البربرية ، واهدافها الحقيقية الواضحة . وقد اتينا على ذكرها هنا ، على الرغم من فشل الاطار العام الذى وضعت فيه ، اطار السياسة البربرية التى عرفت بداية فشلها بصدور الظهير البربرى سنة 1930 ، لاننا سنصادف آثارها باعتبارها عنصرا من العناصر المكونة لحصيلة التعليم الفرنسى فى بلادنا ليلة الاستقلال .

* — *

واذا كانت سنة 1930 قد سجلت ، كما قلنا ، تاريخ وفاة السياسة البربرية وميلاد الحركة الوطنية ، فان سنة 1944 ، قد سجلت بدورها تغيرا نوعيا هاما ذا اتجاهين متكاملين : **الاول** هو فشل السياسة التعليمية الفرنسية ككل . والثانى تحول الحركة الوطنية المغربية من حركة مطالب اصلاحية ، الى حركة نضالية كشفت اهدافها ـ ذات الطابع الاصلاحى دوما ـ فى شعار الاستقلال.

وهنا سنجد انفسنا ، ابتداء من عام 1944 ، امام حدثين هامين في الميدان الذى يهمنا ، ميدان التعليم . فابتداء من هذه السنة اخذت سلطات الحماية تدخل تعديـلات « اساسية » فى

سياستها التعليمية ، كما اخذت الحركة الوطنية بدورها تجد فى فتح المدارس العربية الوطنية الحرة مع ما رافق ذلك من تحرك اوساط القرويين وكلية ابن يوسف بمراكش ضمن اطار النضال من اجل الاستقلال ونشر الثقافة العربية الاسلامية بشكل أقل جمودا مما كان عليه الامر من قبل .

واذن ، فقد تطور التعليم فى المغرب ، على عهد الحماية ، بوصفه قطاعا من قطاعات الحياة المغربية العامة ، السياسية والاجتماعية والفكرية ، **وبالتالى خضع لنفس الوتيرة من التطور التى خضعت لها الاوضاع العامة فى البلاد .**

بعد التأكيد على هذه الحقيقة التى يجب ان لا تغيب عن اذهاننا قط سواء عند دراستنا للتعليم قبل الحماية او اثناءها أو بعدها ، نسجل المعطيات التالية بخصوص تطور التعليم فى مغرب الحماية ، وهى معطيات لابد من ابرازها والتركيز عليها قبل دراسة مشكل التعليم كما ظهر بعد الاستقلال ، وكما نعانى منه اليوم .

1 ــ ان فشل السياسة البربرية ككل ــ وكان ذلك نتيجة مقاومة داخلية ورد فعل خارجى قادتهما معا الحركة الوطنية ــ قد ادى بطبيعة الحال الى اخفاق تجربة « المدارس الفرنسية ــ البربرية» وهى ما تزال فى مهدها . وفعلا فقد تم التخلى عنها نهائيا . فيما عدا ثانوية ازرو التى ظلت الى حدود 1948 محتفظة بطابعها اللاعربى . والتى بقيت تعانى منه الى ما بعد الاستقلال .

لقد كان التخلى عن هذه المدارس انتصارا تاريخيا حققه الكيان المغربى ضد خطة كانت تستهدف ضربه فى الصميم .. هذا أمر صحيح اكيد . ولكن مع ذلك يجب ان لا نغفل حقيقة هامة وهى **ان التخلى عن هذه المدارس لم يعقبه انشاء مدارس اخرى بديلة ،** من النوع السائد فى المدن ، بل بقيت المناطق الجبلية فى بلادنا ، **على كثرتها ووفرة سكانها ، محرومة من كل تعليم كيفما**

كان نوعه . وحتى الكتاتيب القرآنية التى كانت منتشرة فى هذه المناطق قبل الاحتلال الفرنسي قد تعرضت للاغلاق تطبيقا للسياسة البربرية . ولما تم العدول عن هذه السياسة لم تسمح سلطات الحماية باعادة فتحها ، او انشاء كتاتيب اخرى .

كل ذلك جعل قسما هاما من الشعب المغربى يبقى معزولا ، محروما من اى عمل تعليمى تربوى الشىء الذى كانت له انعكاسات خطيرة فيما بعد ، وخاصة غداة الاستقلال . وهل نحن هنا فى حاجة الى التأكيد على حقيقة مرة ، وهى ان جميع الاطر الصغيرة والمتوسطة والعالية التى تسلمت مراكز المسؤوليات من ايدى الفرنسيين غداة الاستقلال لم يكن من بينها الا افراد قلائل ممن ينتمون الى هذه المناطق التى نتحدث عنها ؟ وهل نحن فى حاجة الى الاشارة الى أن قبائل هذه المناطق قد وجدت نفسها غداة الاستقلال تشعر ، نتيجة ذلك ، بانها « غير داخلة فى الحساب » ، مما جعلها مستعدة سيكولوجيا للتجارب بشكل او بآخر مع كل من يضرب على هـذا الوتر ؟

2 ــ على ان الذى قلناه بخصوص المنـــاطـق الجبليـة التى استهدفتها السياسة البربرية الفرنسية ، يصدق ايضا على مجموع البادية المغربية التى ظلت طوال عهد الحماية محرومة من التعليم الحديث ، ولو انها قد احتفظت بدرجات متفاوتة بالتعليم العربى التقليدى المتمثل فى الكتاتيب القرآنية .

لقد ركزت سلطات الحماية تعليمها ، على ضآلته ومحدوديته ، فى المدن الكبرى خاصة ، مما جعل الجماهير القروية تبقى هى الاخرى غائبة او تكاد ، عن العالم الجديد ، عالم الاستقلال . وفى هذا الصدد يمكن للمرء ان يجزم بانه الى حدود سنة 1946 لم تكن هناك فى البادية المغربية اية مدارس حديثة . اما ما كان يسمى بـ « المدارس القروية » ، على قلتها ، فقد بقيت اسما بدون مسمى لقد كانت عبارة فقط عن صفوف اولية يلتحق بها بعض الاطفـال

بدون انتظام ويغادرونها نهائيا **وهم دون مستوى الشهادة الابتدائية بكثير .**

نعم لقد كانت هناك تجربة « **اريك لابون** » الذى عين مقيما عاما بالمغرب فى 30 مارس 1946 . ولكن هذه التجربة نفسها قد حملت معها منذ الاعلان عنها بذور فشلها . لقد جاء « مشروع لابون » بعد أن فات الاوان : فالاصلاحات القروية التى كانت تستهدف ذر الرماد فى العيون ، والتى ركز عليها هذا المشروع ، قد تعدتها المطالب الوطنية التى اصبحت مكثفة كما قلنا فى شعار الاستقلال ، هذا علاوة على انه لقى معارضة شديدة من جانب المعمرين واصحاب رؤوس الاموال من المستعمرين .

لقد كان « اريك لابون » يهدف من وراء مشروعه الى مقاومة التيار الوطنى أو التخفيف منه بعد ان اصبح ممتدا الى اوسع الجماهير الشعبية عقب الاعلان عن وثيقة الاستقلال ، وثيقة 11 يناير 1944 . كان الغرض منه تخفيض درجة الاستيلاء فى اوساط الشعب المغربى ، وخاصة لدى الفئات الفقيرة ، وذلك بخلق « انعاش وطنى » مزيف ، « انعاش » اجتماعى اقتصادى وثقافى يصرف جماهير الشعب عن المطالب الوطنية والنضال الوطنى ، وكأن المسألة كلها هى الحصول على « لقمة خبز » او فتح هياكل مدرسية ..

على ان الذى يهمنا هنا من مخطط « لابون » هو الجانب التعليمى منه . وتتلخص اهدافه فى هذا المجال فى محاولة « القضاء » على الامية لدى الاطفال المغاربة ، خاصة سكان البادية والقرى . وذلك بانشاء مدارس عرفت باسم Les écoles foraines مدارس يجند للعمل فيها كل من يستطيع تلقين الاطفال مبادىء القراءة والكتابة سواء كان مؤهلا للتعليم او غير مؤهل ، ويتولى الاشراف عليها اولئك الذين تكلفوا بتطبيق المشروع العام ،

مشروع الاصلاح القروى الذى كان يشكل العمود الفقرى فى مخطط لابون الاقتصادى والاجتماعى . لقد كان هذا المشروع « ثوريــا » فى شكله ، ولكنه رجعى استعمارى فى مضمونه ، فركز الوطنيون على مضمونه الرجعى فقاوموه ، وعارض المعمرون شكله «الثورى» فحطموه ، مما جعله يبقى مشلولا خلال الشهور التى عاشها الى ان تم التخلى عنه بكيفية نهائية بعزل صاحبه وتعيين الجنرال **جـوان** مكانه ، وذلك عقب الاحداث الدموية والسياسية التى عرفتها سنة 1947 . (الحوادث الدموية بالدار البيضاء وخطاب محمد الخامس بطنجة) .

واذن فلقد بقى ما كان على ما كان ، ظلت البادية المغربية عموما محرومة من التعليم ، فبقى ابناؤها فى نفس الوضعية التى عاش فيها آباؤهم من قبل ، يتسكعون فى باديتهم ، او يهاجرون الى المدن الكبرى طلبا للشغل . نعم لقد شاركت البادية المغربية مشاركة فعالة فى النضال من اجل الاستقلال ، وتشكلت من ابنائها الجمعيات الفدائية وحركة المقاومة وجيش التحرير ، ولكن ابناء البادية ظلوا عموما ، سواء فى مساقط رؤوسهم او فى المدن التى هاجروا اليها ، محرومين من الثقافة والتعليم ، الشىء الذى انعكس اثره على حركة الفداء والتحرير نفسها ، وعلى وضعية ابناء البادية الذين ظلوا غداة الاستقلال بعيدين عن المشاركة فى تولى المسؤوليات وتسيير دوالب الدولة .

3 ــ ان الحاحنا على غياب التعليم فى البادية المغربية عموما ، يجب أن لايفهم منه على ان جماهير المدن قد كانت احسن حظا فى هذا الميدان . لقد بقى التعليم الفرنسى فى المغرب **تعليم نخبــة** ، ضيق الانتشار ، قليل المردود ، كما يتجلى ذلك من البيانات التالية:

أ ــ بخصوص الفترة الاولى ، **فترة ما بين سنة 1912 وسنة** 1945 ، يمكن ان نكون لانفسنا فكرة واضحة عن حصيلة التعليم الفرنسى فى المغرب من خلال الاحصاءات التالية :

- لم يكن مجموع الاطفال المغاربة الذين ضمتهم المدارس الفرنسية حتى سنة 1920 يتعدى سبعة آلاف طفل !

- في سنة 1938 كان مجموع تلاميذ المدارس الابتدائية المخصصة للاطفال المغاربة المسلمين لا يتجاوز 23.270 طفل (مقابل 608 تلميذ فى الثانوى هذا فى حين كان عدد تلاميذ المدارس المخصصة لتعليم ابناء الاوربيين يتجاوز 34.000 تلميذ ، وعدد تلاميذ المدارس المخصصة لتعليم ابناء اليهود يتجاوز 19.000 طفل . ويمكن ان نتبين الدلالة العميقة لهذه الارقام اذا لاحظنا أن عدد السكان الاوربيين لم يكن يتجاوز واحدا من ثلاثين بالنسبة للمغاربة المسلمين ، كما أن عدد افراد الجالية اليهودية لم يكن يتعدى واحدا من سبعة وثلاثين بالنسبة الى المغاربة المسلمين ! اما بالنسبة للميزانية فقد ظل نصيب التعليم المخصص لابناء الاوربيين ضعف النصيب المخصص لتعليم ابناء المغاربة .

- اما في سنة 1945 اى بعد اثنين وثلاثين عاما من الحماية فلم يكن عدد الاطفال المسلمين المسجلين فى المدارس الابتدائية يتجاوز 41.490 طفل (مقابل 1.003 فى الثانوى) . وهذا يعنى أن نسبة الاطفال المغاربة المسلمين الملتحقين بالمدارس لم تكن تتجاوز 2ر7 % بالنسبة لمجموع الاطفال البالغين سن الدراسة .

- اما من حيث النتائج فان الاحصائيات تشير الى انه لم يحصل على الباكالوريا الاولى طوال الفترة الممتدة ما بين 1926 و 1936 سوى 30 تلميذا مغربيا ، اما الباكالوريا الثانية فلم يكن حاملوها طوال العشر سنوات المذكورة يتجاوزون 20 فردا . وفي المستوى الجامعي لم يكن هناك الا مغربى واحد مسلم من المجازين فى الحقوق .

ـ وعلى العموم فان حصيلة التعليم الفرنسي في المغـــرب منذ قيامه الى حدود سنة 1944 كانت كما يلي : 3 اطباء ، 6 محامين، 6 مهندسين فلاحيين . اما بالنسبة لاطر التعليم فلم يكن هناك الا « المدرسون » اي الذين يدرسون اللغة العربية دون ان يكون لهم من الاهلية العلمية او البيداغوجية ، ما يسمح لهم بالالتحاق بسلك المعلمين . اما الملتحقون بالمدارس الاعدادية للمعلمين فلم يكن عددهم يتجاوز سنة 1943 ـ 1944 اربعة مغاربة كمعلمين ، و 14 مغربيا كمساعدين للمعلمين !

ان هذه النتائج الهزيلة التي اسفر عنها تعليم الحماية الفرنسية في المغرب بعد اكثر من ثلاثين سنة من قيامه ، يكشف عن حقيقة هامة ، وهي انه **تعليم لامردود له** . ان الاطفال الذين كانوا يلتحقون بالمدارس الابتدائية على قلة عددهم ، لم يكونوا ينهون سنوات الدراسة فيها كاملة، بل لقد كانوا ينقطعون أو يفصلون في السنة الثالثة الابتدائية في الغالب . اما اولئك الذين تمكنوا من اجتياز المرحلة اصبحت الان تخطط لقبول 10.000 تلميذ جديد . وهذا ما جعل عدد التلاميذ الملتحقين بالمدارس الابتدائية الاسلامية يقفز من 14.490 تلميذ سنة 1945 الى 114.535 تلميذ سنة 1950 ، الى 190.000 سنة 1953 الى 210.018 في نوفمبر سنة 1954 (ومع ذلك فقد ظلت نسبة المقبولين في المدارس الى عدد البالغين سن الدراسة لا تتجاوز الابتدائية كاملة فان نسبة ضئيلة منهم هي التي كان يسمح لهـا بالالتحاق بالمدارس الثانوية ، وتلك ملاحظة اساسية سنعود اليها فيما بعد .

د ـ اما بخصوص الفترة الثانية التي **تمتد من سنة 1945 الى** سنة 1955 فقد عرفت كما قلنا تحولا نسبيا نجملـه في الوقائـع التالية :

اولا : لقد رفعت سلطات الحماية ، بعد وثيقة الاستقــلال مباشرة ، نسبة القبول في الابتدائي . وهكذا فبعد ان كانت

مخططاتها مبنية على اساس قبول 2.500 طفل جديد كل سنة ، 2ر7 % عام 1945 ، و 7 % عام 1950 و 11 % عام 1954) . امـــا بالنسبة للمدارس الثانوية المخصصة للمغاربة فلم يكن مجموع الملتحقين بها يتعدى 1.003 سنة 1945 و 2.771 سنة 1950 و 3.839 فى نوفمبر 1954 .

أما حصيلة هذه الفترة (1945 ـ 1955) فقد كانت كما يلي : كان عدد الحاملين للشهادة الابتدائية لا يتجاوز 4.188 طفل ، وعدد الحاصلين على الباكالوريا الاولى 175 ، وعلى الباكالوريا الثانية 94 . اما بخصوص اطر التعليم فلم ترتفع نسبة المغاربة المسلمين ضمن رجال التعليم الا بـ 4 % خلال الفترة المتراوحة بين سنة 1948 وسنة 1954 ، وهي الفترة التى عرفت اوج « اتساع » التعليم الفرنسي فى المغرب . كان عدد رجال التعليم الابتدائي سنة 1955 يبلغ 7.772 منهم 3.811 مغربي ما بين فقيه ومدرس . اما فى الثانوى فلم يكن عدد المغاربة يتجاوز 47 معلما مقابل 151 استاذا فرنسيا).

وبخصوص الوظائف الادارية تدل الاحصائيات على ان عدد المسلمين ، مغاربة وجزائريين ، لم يكن يفوق 45 شخصا ، وكلهم مديرون ابتدائيون فى المناطق النائية ، وذلك من أصل 1.276 اداري اي ان نسبة المغاربة فى الوظائف الادارية التعليمية لم تكن تتجاوز 3ر5 % وهي نسبة تعطينا فكرة واضحة عن اولئك الذين سيتولون مهمة الاشراف والتسيير فى جهازنا التعليمي غداة الاستقلال .

ثانيـا : اما التحول الثاني الذى عرفته السياسة التعليمية الفرنسية في المغرب بعد عام 1944 فهو التخفيف نسبيا من شروط قبول المغاربة فى المدارس المخصصة لابناء الاوربيين . وهذا امـر كانت تلح عليه قيادة الحركة الوطنية الحاحا خاصا منذ الثلاثينيات ذلك لان هذه المدارس هي وحدها التي كانت تقدم تعليما عصريا متينا يضمن للمتخرجين منه مستوى لائقا يمكنهم مـن متابعـة

دراستهم العالية والانتساب الى الطبقة المسيرة . وهكذا تهافتت العائلات البورجوازية والارستقراطية التقليدية ، على هذا النوع من المدارس خاصة بعد سنة 1946 . ويكفي ان نشير هنا الى ان عدد المغاربة في التعليم الاوربي (وكلهم من ابناء الاعيان والوجهاء والاغنياء) قد بلغ سنة 1955 نحو 1560 في الثانوي و 4600 في الابتدائي ، هذا في الوقت الذي لم تكن تضم فيه المدارس اليانوية المخصصة اصلا لابناء المغاربة سوى 4.233 تلميذ . وتلك ظاهرة ستكون لها نتائج خطيرة سنعود اليها بعد قليل .

ثالثا : واما التحول الثالث الذي طرأ على السياسة التعليمية الفرنسية في المغرب خلال هذه الفترة ، فترة 1944 — 1954 ، فهو السماح بفتح مزيد من المدارس العربية الحرة ، وهي المدارس التي حرصت الحركة الوطنية على انشائها في مختلف اقاليم البلاد والتي كانت تمول اساسا من تبرعات الشعب المغربي . لقد كانت هذه المدارس ، مدارس وطنية فعلا . فاللغة العربية هي السائدة ، وبها تلقن مختلف المواد الدراسية ، والاساتذة والمشرفون عليها كانوا في الغالب من المتشبعين بالروح الوطنية ، مما جعلها عبارة عن مراكز للتكوين الوطني مع مسايرة التعليم العصري خطوة خطوة . لقد عرفت هذه المدارس نموا مطردا رغم جميع العراقل التي كانت تضعها سلطات الحماية في طريقها ، والتي كانت تصل في معظم الاحوال الى تشريد اساتذتها ونفي مديريها واصدار قرارات باقفالها . ومع ذلك فلقد اخذ عدد الملتحقين بها ابتداء من سنة 1944 ـ وكلهم من الطبقات الفقيرة والمتوسطة ـ ينمو باستمرار . ويكفي ان نشير هنا الى ان عدد تلامذتها لم يكن يتجاوز سنة 1937 بضعة آلاف في حين اصبحت تضم سنة 1954 ما يزيد على 20.000 تلميـذ .

حقا ، لقد كان من الممكن ، بل من الواجب ، ان تصبح هذه المدارس العربية الحرة اساسا للمدرسة الوطنية المغربية غداة

الاستقلال . ولكن الذى حصل هو العكس تماما . فلقد تحولت الى مدارس تجارية تساير برامج التعليم الحكومى ، مما اضعف من مضمونها الوطني التحرري ، بل انها انتهت اخيرا الى عكس ما انشئت من اجله . فاصبحنا نراها اليوم تحاول التمسك باذيال مدارس البعثة الفرنسية ، بعد ان اصبح التعريب يفرض نفسه على المدارس الرسمية .. كل ذلك بدافع طابعها التجارى المحض الذى سيطر عليها كل السيطرة .

ومهما يكن من امر فان هذه المدارس العربية التى انشأتها الحركة الوطنية قد بقيت طوال الفترة التى سبقت الاعلان عن الاستقلال ، مراكز للتكوين الوطني ولنشر الثقافة الوطنية ، ولم تكن قط مدارس لتخريج الاطر الفنية المتخصصة . لقد كان معظمها مدارس ابتدائية ، اما الثانويات فلم تكن تتعدى اصابع اليد الواحدة هذا بالاضافة الى انه لم يكن هناك اى تعليم جامعي يستقطب تلامذتها . كل ذلك جعل تأثير المتخرجين منها غداة الاستقلال منعدما او يكاد . **وبالتالى فان المسؤوليات والمراكز بقيت دوما من « اختصاص » اولئك الذين اسعدهم الحظ .. ابناء النخبة الحضرية والقروية .**

اما بالنسبة للتعليم الاسرائيلى فيمكن القول بصفة عامة انه كان نسخة طبق الاصل من التعليم الاوربى الذى كان بدوره يساير برامج التعليم فى فرنسا خطوة خطوة . لقد كانت المدارس المخصصة لتعليم ابناء اليهود المغاربة صنفان ـ كما اشرنا الى ذلك قبل . **مدارس الرابطة الاسرائيلية** وكانت تضم فى نوفمبر 1954 نحو 31.609 تلميذ ، وتتميز خاصة بمسايرتها للتعليم الحديث الذى من النوع الاوربى مع عناية فائقة باللغة العبرية والثقافة الدينية اليهودية . اما الصنف الآخر فهو **المدارس الفرنسية الاسرائيلية ،** وكانت تضم فى نوفمبر 1954 نحو 3.531 تلميذ وبرامجها لا تكاد تختلف عن برامج المدارس الاوربية . وعلى الرغم من ان اليهود

يعتبرون مغاربة ، فانه لم يكن فى مدارسهم هذه اى مكان للغـــة العربية والثقافية المغربية . وعلى العموم يمكن التأكيد على أن التعليم بالنسبة لليهود المغاربة كان معمما واجباريا ، لقد كانت المدارس المخصصة لهم تضم ما يزيد عن 90 % من الاطفال اليهود البالغين سن الدراسة .

هذا بالاضافة الى ان ابواب الثانويات الاوربية (الليسيات) كانت مفتوحة فى وجوههم ، منذ اول الامر ، دون اى قيد او شرط والنتيجة هى ان جل الشباب اليهودى المغربى كان يجد نفسه فى وضعية تعليمية وثقافية تمكنه من ولوج سلك الوظيفة بكل سهولة فى القطاعات الرسمية والحرة سواء بسواء . هذا اذا لم يغادروا المغرب لمتابعة الدراسة فى الخارج او للعمل فى جهات اخــرى ..

* — *

وبعد ، فما هى النتائج العملية ، الملموسة ، التى اسفر عنها تعليم الحماية بالمغرب ؟

1 ــ لقد بقيت الاغلبية الساحقة من ابناء الشعب المغـــربى دون تعليم . واذا تذكرنا ان سكان البادية كانوا يشكلون فى اواخر عهد الحماية نحو 90 % من مجموع الشعب المغربى ، واذا تذكرنا كذلك ما قلناه بصدد خلو البادية المغربية جبالا وسهولا من اى تعليم منظم ، ادركنا مدى **هول الكارثة** .

نعم لقد كانت هناك زيادة ملحوظة فى عدد المسجلين فــى المدارس ابتداء من عام 1944 ، كما تؤكد ذلك الاحصائيات التى اتينا بها قبل . ولكن هذه الزيادة ــ التى كانت مقصورة على المدن الكبيرة والمتوسطة ــ يجب ان لا تصرفنا عن حقيقة اساسية ، وهى ان نسبة الاطفال المسجلين فى المدارس لم تكن تتجاوز حتى سنة 1951 مقدار 7 % . على ان هذه النسبة على ضآلتها تفقد كل اهمية اذا لاحظنا ان الاغلبية الساحقة من التلاميذ لم يكونوا يكملون السلك

الذى ينتمون اليه . ووفي هذا الصدد تشير بعض الاحصائيات الى ان نسبة التلاميذ الذين اتموا السلك الابتدائى لم تكن تتجاوز حدود 7% وان نسبة الضياع كانت تفوق 90% .

واذن ، فلقد بقى التعليم فى المغرب ، كما خططت له الحماية، تعليما خاصا بنخبة ضيقة جدا . نخبة تتكون اساسا من العائلات الارستقراطية ، وكبار التجار .. **لقد كانت الوضعيــة التعليميــة تعكس بصدق وامانة الوضعية الطبقية .**

2 ـ هذه الظاهرة نلمسها بشكل جلي اذا القينا نظرة سريعة على هرم التعليم ، خاصة بعد سنة 1944 ، اى خلال الفترة التى سمحت فيها سلطات الحماية بقبول ابناء الوجهاء والاغنياء فى المدارس المخصصة لابناء الاوربيين .

فابتداء من هذه السنة تحولت البورجوازية التقليدية من التسابق نحو مدارس الاعيان الى التهافت على المدارس الاوربية ، وتحولت مدارس الاعيان نفسها الى مدارس ثانــويــة اسلامية ، (كوليجات) ، معظم زبنائها من ابناء الطبقة المتوسطة ، وهي مدارس لم يكن تعليمها يتعدى مستوى الشهادة الثانوية (البروفى) فى الغالب ، وقد ظلت كذلك الى ما قبل الاستقلال بقليل . (لم ينشأ السلك الثانى الثانوى بمدرسة ازرو الا فى اكتوبر 1953 . امــا ثانوية البيضاء ـ الكوليج الاسلامى ـ فقد ظل اعلى قسم فيها حتى سنة 1954 هو قسم الباكالوريا الاولى ، مثلها فى ذلك مثل ثانوية مولاى ادريس بفاس وثانوية مولاى يوسف بالرباط) . والقليل جدا من تلامذة هذه المدارس هم الذين كانوا يتمكنون من الالتحاق بـ « الليسيات » الاوربية لاتمام الدراسة الثانويــة والاستــعداد للدراسة الجامعية ، ولقد كان هؤلاء فى الاغلب الاعم من ابناء العائلات المحظوظة اجتماعيا واقتصاديا .

لقد نتجت عن هذا التحول ظاهرة غريبة لفتت انظار الباحثين: ذلك ان تهافت العائلات البورجوازية والارستقراطية التقليدية على

التعليم الاوربي ، وحرصها على توفير الإمكانيات لابنائها ليتابعوا دراستهم العالية ، **قد جعل هرم التعليم بالمغرب سنة 1955 هرما متسعا في قمته ضيقا في وسطه وقاعدته .**

لقد كانت قمة هذا الهرم مساوية في اتساعها لمثيلاتها في البلدان الاوربية المتقدمة ، في حين ظلت قاعدته ضيقة كغيرها من قواعد اهرام التعليم في البلدان المستعمرة والمتخلفة . ففي سنة 1955 كان عدد المغاربة بالتعليم العالي يشكل نسبة 1٫5 % من مجموع المسجلين في المدارس ، وهي نسبة تكاد تساوي النسبة المماثلة لها في فرنسا (1٫8 %) هذا في حين كانت النسبة في الثانوي والابتدائي اقل مما في فرنسا بنحو 8 مرات .

وعلى سبيل الايضاح والمقارنة نشير الى ان مؤتمر ادريس ابابا ـ وهو مؤتمر لليونسكو عقد خصيصا لمعارجة قضايا التعليم بافريقيا ـ قد حدد النسب التي يجب ان يبلغها التعليم في افريقيا كما يلي : 15 في الابتدائي ، 9 في الثانوي ، 0٫2 في العالي . هذا في وقت كانت توجد فيه هذه النسب في المغرب على الشكل الآتي : 11 في الابتدائي ، 1٫12 في الثانوي ، 0٫6 في العالي . (كان ذلك سنة 1955) .

واذا اتخذنا هذه النسب التي حددها مؤتمر اديس ابابا اساسا ومقياسا ، فان النتيجة التي سنخرج منها هي ان عمل فرنسا التعليمي في المغرب قد اسفر في السنة الاخيرة من الحماية عن خمس (1/5) ما يجب ان يكون في الابتدائي ، وثمن (1/8) ما يجب ان يكون في الثانوي ، **وثلاثة اضعاف ما يجب ان يكون** في العالي .

3 ـ والمضمون الاجتماعي لكل هذه الارقام والنسب هو ان التعليم الفرنسي في المغرب لم تستفد منه الجماهير الشعبية اطلاقا . لقد كان ـ كما قلنا ـ تعليما خاصا بنخبة ضيقة جدا ،

النخبة التي كان بامكانها ان تضمن لابنائها ـ وبمختلف الوسائل ـ الاستمرار في الدراسة حتى النهاية ، او قريبا منها .

ومن غريب المفارقات **ان هذه النخبة الاجتماعية التي قادت الحركة الوطنية او انتسبت اليها كانت ، بمقدار ما تحتج على لاقومية التعليم في المغرب ، بمقدار ما تدفع بابنائها نحو المدارس الاوربية .** وتلك ظاهرة مازالت قائمة الى الآن ، . لقد قامت هذه النخبة ضد سياسة فرنسا في المغرب ، سياستها التعليمية والاقتصادية والاجتماعية ، ولكن الصورة البديلة التي تكونت لديها عن المغرب كما تريده ان يكون ، هي صورة مستمدة اساسا من فرنسا ذاتها، من نظامها التعليمي واقتصادها الليبرالي . **ومن هنا اصبح هم هذه النخبة غداة الاستقلال ، وقد كانت هي وحدها المؤهلة اجتماعيا وثقافيا لتولي المسؤوليات ، هو العمل على استمرار الوضع القائم وتنميته على اساس النموذج الفرنسي . اما التغيير الجذري ، اما اعطاء الاستقلال مضمونه الحقيقي ، سياسيا واجتماعية واقتصاديا وثقافيا ، فذلك ما لم تكن قادرة عليه بحكم تكوينها الفكري وانتمائها الاجتماعي .**

4 ـ وما دمنا قد اشرنا الى « **لاقومية** » **التعليم** الذي اقامته الحماية في المغرب ، فلا بأس من التذكير ببعض الحقائق المعروفة . فالتعليم الاسلامي ـ وهو التعليم المخصص لابناء المغاربة ـ لم يكن اسلاميا الا بالاسم . فقبل سنة 1944 لم يكن هناك اي اهتمام باللغة العربية والمواد الاسلامية . فلقد كانت اللغة العربية والثقافة الاسلامية ممنوعة او شبه ممنوعة الا ما كان من بعض الدروس الدينية في مدارس ابناء الاعيان . اما بعد سنة 1944 ، وهي السنة التي تقرر فيها تخصيص 10 ساعات في الاسبوع للعربية والمواد الدينية ، مقابل 20 ساعة للفرنسية والمواد المدروسة بها ، في الابتدائي ، فقد ظلت الحصص العربية ضعيفة هزيلة ، غير خاضعة لاية مراقبة او توجيه ، وكثيرا ما كانت حصص عياء وملل للتلاميذ:

فالكتب المدرسية منعدمة تماما ، والمعلمون اشخاص « يحسنون » القراءة والكتابة ويحفظون شيئا من القرآن والفقه واشعار العرب .. هذا في احسن الاحوال . اما التكوين البيداغوجي ، اما التدريس وفق الاساليب العصرية فذلك ما كانوا يجهلونه بالمرة . لقد كان يطلب من التلاميذ ان يحضروا ويحفظوا .. وكثيرا ما كان المطلوب منهم حفظه يفوق مستواهم الفكري بكثير ..

اما في الثانويات الاسلامية فلقد كانت اللغة العربية لغة اجنبية مثلها مثل الالمانية والانجليزية ، بل انها كانت تعتبر احيانا لغة ثانية مثلها مثل الدارجة المغربية التي كانت تقبل كلغة ثانية بدلا من العربية الفصحى .واما « الليسيات » اليانويات الاوربية التي كانت قبلة ابناء النخبة التي تحدثنا عنها ، فلم تكن تعير اي اهتمام لتعليم العربية لابناء المغاربة . وكل ما كان هناك هو دروس خاصة في العربية او الدارجة تلقن بالفرنسية للفرنسيين كلغة ثانية ، وتتخذ مادة لها قصصا خرافية وحكايات تشوه بالمغرب وتاريخه وحضارته .

وهكذا كانت الحصص المخصصة للعربية ، سواء في المرحلة الابتدائية او الثانوية ، ذات نتيجة سلبية جدا . لقد رسخت في اذهان التلاميذ **صورة مشوهة** عن العربية وثقافتها ، مما جعلهم يكتسبون رد فعل سلبي لاشعوري ضد كل ما هو عربي ، وهو رد فعل مازالت آثاره قائمة في بعض الاوساط المثقفة .

ان هذا لا يعني ان مضمون المواد التي كانت تدرس بالفرنسية كان احسن حالا من مضمون المواد العربية . غير انه يجب ان لاننسى ان قدرة الاطفال على المقارنة تكاد تنحصر في الشكل والاسلوب . وبالفعل فلقد كان جل المعلمين بالفرنسية ، فرنسيين ذوي تكوين بيداغوجي لائق . وكان استعمالهم لاساليب التدريب الحديثة ، مع جدة المواد التي كانوا يدرسونها ، عامـــلا اساسيا في تركيــز

شعور الاعجاب ، لدى اطفالنا وشبابنا ، بكل ما هو **فرنسي** ، مقابل **الشعور بالاحتقار والنفور** لكل ما هو **عربي** .

اما عن مضمون الدراسة ، فبقدر ما كان محتوى الحصص المخصصة للعربية منتهيا الى عصور الانحطاط ، بقدر ما كان مضمون المواد المدروسة بالفرنسية ليبراليا استعماريا .. ليس المهم ما يتلقاه الاطفال من دروس اللغة والمحادثة والحساب والاشياء .. ولكن المهم **هو ما يبقى في اذهانهم بعد ان ينسوا كل ذلك .. ان ما يبقى –** وما زال باقيا – **هو التوجيه الاستعماري ، وعقول مؤطرة ضمن التوجيه .**

5 – بقي علينا ان نقول كلمة موجزة عن التعليم الوطني ، الاصلي منه والحر العربي . لقد عرف التعليم الاصلي نموا وتطورا نسبيين منذ عام 1944 ، ولكن ذلك ، كان كما قلنا قبل ، في اطار الوضعية التي ورثها عن عهد ما قبل الحماية . فلم يعرف هذا النوع من التعليم اية تعديلات عميقة سواء في شكله او في مضمونه ، مثل تلك التي عرفتها جامعة الازهر بالقاهرة مثلا. ولذلك بقي تأثيره في الحياة الثقافية محدودا جدا ، على الرغم من انه قد استطاع ان يفرض نفسه غداة الاستقلال كنوع كان يدخل في الحساب دوما . وسنرى تفصيل ذلك في الحلقات المقبلة .

اما التعليم الحر ، فلقد خلق ، كما قلنا ، تيارا وطنيا متحررا بحكم طابعه العربي ، وبتأثير الوضعية الاجتماعية لرواده ، وهم في الغالب من ابناء الطبقات الفقيرة والمتوسطة . وبما ان هذا النوع من التعليم كان مبتورا لافتقاره الى مؤسسات عالية تستقطب المتخرجين منه ، فلقد كان على هؤلاء ان يتوجهوا الى الشرق العربي، حيث تمكنت افواج عديدة منهم من اتمام دراستها في الجامعات العربية ، في القاهرة ودمشق خاصة ، مما جعل ذلك التيار الوطني الذي خلقه هذا النوع من التعليم يتعمق ويتسع .

وإذا كان هذان النوعان من التعليم لم يمنحا للمتخرجين منهما نفس الحظوة والامتيازات التى حظى بها اولئك الذين درسوا فى المدارس والجامعات الفرنسية ، فانهما قد زودا جهاز التعليم غداة الاستقلال باطر عربية ساعدت كثيرا على حل مشكلة الاطر التعليمية التي عاني منها المغرب كثيرا آنذاك . كما انهما قد خلقا تيارا عربيا قوميا طغى ـ رغم ضحالته احيانا ـ على حياتنا الثقافية عموما . وإذن ، فلقد وجد المغرب نفسه غداة الاستقلال امام عقليتين، وبالاحرى امام **نمطين فكريين متنافرين** الى حد كبير : **النمط الغربى** ، الذى انتجته المدارس الفرنسية ، الاوربية منها و(الاسلامية) **والنمط العربى الاسلامى** الذى انتجته المدارس العربية الحرة وكليات التعليم الاصلى وجامعات الشرق . ولقد جذر هذا التنافر ، اختلاف الوضعية الاجتماعية للمنتمين لهذا النمط او ذاك ، مما جعل الصراعات الفكرية والاختلافات الثقافية تعكس ، الى حد بعيد الصراعات الاجتماعية والطبقية . نعم ، انه ليس من الحكمة ان يعمم المرء مثل هذه النتيجة ، ولكنها مع ذلك كانت ، فى الواقع ، شبه عامة ، خاصة في السنوات الاولى من الاستقلال ، اى قبل ان تتحرك التناقضات الاجتماعية بشكل بارز . وهذا موضوع سنعود اليه فى الحلقات القادمة .

تلك ، على العموم ، هى اهم النتائج التى اسفر عنها تعليم الحماية فى المغرب ، نتائج تعليمية ، ولكنها ذات ابعاد سياسية واجتماعية خطيرة ، ستنعكس آثارها على اهم المشاكل التى سيرتطم فيها المغرب المستقل ، وعلى رأسها مشكل التعليم ذاته .

المـــراجـــع :

بالاضافة الى المراجع المذكورة فى آخر الحلقة الماضيـــة ، نشير الى المراجع التالية ومنها استقينا مختلف الاحصائيات التى اتينا بها فى هذه الحلقة .

1 — Ladislav CERYCH : **EUROPEENS ET MAROCAINS**
1930 — 1956 Sociologie d'une décolonisation
BRUVES (Belgique) 1964

2 — R. GAUDEFROY - DEMOMBYNES : **L'OEUVRE FRNÇAISE EN matière d'Enseignement au Maroc.**
Paris 1928

3 — Répertoires des Services et des établissements public d'enseignement au Maroc.
وهو عبارة عن سجل احصائي كانت تصدره سلطات الحماية.

تحولات نيتوكريس

في كتاب الموتى

(1)

اكتب تحت قدم الاميرة ـ العاشقة ـ الكاهنة ـ المعبودة ـ التمثال ـ أشعارا ـ وفوقي القمر المصري في عباءة النجوم يلتف وعبر الهرم الكبير يستلقي ـ وفي الحدائق الوحشية الحمراء محموما على سجادة النور انام ميتا ـ وجسدي مصر وشعري النيل ـ محموما انام ميتا ـ وشفتي فوق فم الاميرة ـ التمثال ـ محموما ـ وعيني ترصد السماء في تكوينها وحركات الريح في الصعيد والنخيل في الواحات والطيور في وادي الملوك تتبع الكاهنة العذراء في المدافن السرية المنهوبة الكنوز ـ فوقي القمر المصري ـ والسمان في هجرته الاولى الى منابع الشمس ـ وانت ترصدين جسدي مصر وشعري النيل ـ انت وانا معتنقان ـ عاشقان التقيا من بعد الف سنة في التيه .

(2)

قدمت لها في القداس الاول والثاني والثالث :
خبز الجسد ـ الخمر ـ القبلات

(3)

ما اندا عار عرى سماء الصيف الابدى ـ المنفى ـ البحر ـ الصحراء ـ الكلمات .

(4)

اقوم بعد الموت من قبرها مرتديا عباءة الشمس
وزهرة الصبار ـ في الضوء اذ تلوى أسي ـ تاج على رأسى
تعويذتي الاهرام في صمتها وساحرات مدن الامس
اتبعها مغامرا رائيا مقتحما دائرة القوس
وحاملا ناري وقيثارتي وعالم الضيناء والبؤس
تقول : اهواك وتدرى على حديقة الصبار في نفسي
فراشة يصطادها ساحر تموت بعد اللمس في الضوء
مرت على وجهى ومرت على منازل حاملة موتى
تاركة خيط دم في الضحى يمتد من بيت الى بيت
أقول للسماء في عريها هل انت نيتوكريس؟ هل انت؟

(5)

زمن للحب أتى وستأتي ازمان للموت

(6)

لم يبق لنا الا الصمت

(7)

ترحل الشمس الى البحر وفي يدها خصلة شعر الملكة

وقــنـــــاع وثـــنــي ودم سال فـوق الطرقـات المهلكـة
وأنـا الكاهـن في معبدهـــا تركتني فوق ارض المعركـــة
ارتــــدى اقنعـــتي منتحـــرا قائلا حبــي وحـــب الملكـــة

(8)

يختبيء القمر
في شعرها وزنبق السماء
ويحمل الشفـق
عبير هذا العالم المغسول بالمطر

وبعد ان ينسدل الستار ابكي ـ وانا أصغي الى العصفور في الافق يغني ـ عاشقان التقيا من بعد الف سنة في التيه ـ كنا هاهنا نمارس الحب ـ وكنا ـ آه كم احب عينيك ـ وكم ـ أحب أن أقبل الربيع في جسمك والحديقة المعطار في شعرك ـ عبر الهرم الكبير محموما أنام ميتا ـ وجسدى مصر وشعرى النيل ـ محموما أنام ـ وأنا احلم في تدمير هذا العالم القديم ـ في احراق هـذا الوثـن الصامت ـ في الفرار والرحيل من جحيم هذا الاسر نحو مدن الله ـ وفي الحلول في الثورة ـ في نسف جسور الموت ـ في الرقص على الانقاض ـ في اغراق هذا الموكب المليء بالجرذان ـ في العودة للظهور بعد الموت ـ في الحضور في العالم ـ في الرحيل للكواكب الاخرى على ظهر جواد الشعر ـ في البكاء تحت قدم العاشقة ـ الكاهنة ـ المعبودة ـ التمثال ـ تحت مطر الخريف ـ والسمان في هجرته الاولى الى منابع الشمس ـ وانت في مهب الريح تبكين ـ وأنت وانا نعبر بوابات هذا العالم المكتـظ بالجنـود والمنتحريـن

والمجانين وبالموتى وبالاصفار والمرضى وبالمنتظرين ـ آه كم احب عينيك ـ وكم ـ أحب أن أنام فى الحدائق الوحشية الحمراء ـ فوق ذهب النهدين ـ فوق سرة النهر ـ أنام ميتا ـ وجسدى مصر وشعرى النيل .

(9)

زمن للحب آتى وستاتى ازمان للموت

محمد زنيبر

مفهوم الاصالة في ثقافتنا القومية

- 2 -

تبنى الحضارة الاروبية مبدأ أخذنا به منذ أجيال وتجاوزناه اليوم .

هذه الطبيعة المعقدة لمفهوم الاصالة التى تربط بين الماضى والحاضر جعلت كثيرا من المثقفين العرب يتحاشون الكلام عنها أو يستنكرونها صراحة مخافة أن يتهموا بالجمود والرجعية ، وكأن الحكم لهم أو عليهم هو المقياس في الموضوع . وموقف من هذا النوع يتحول بالبحث من دائرة الموضوعية الى دائرة الذاتية، بحيث يصبح المفكر سجينا لما يحببه لطائفة من الناس ، ولو كان هذا الحب قائما على الوهم وسوء التفاهم ! وتصبح الافكار ذاتها تنتقى للمناسبة كما تنتقى الثياب الجميلة عند السيدات الانيقات ، حسب الفصول والاذواق العابرة !

وهذا النوع من الاتصال بالجمهور خال تماما من الاخلاص والجدية لانه ، بدل أن يكون قائما على الشجاعة التى تقود الى

الحقيقة أو تقرب منها ، على الاقل ، ينبنى على نوع من المساومة تعطى فيها الاسبقية لا لمعطيات المشكلة الحقيقية ، وانما لردود الفعل عند الجمهور تجاه المؤلف أو المفكر : « انصتوا ، يا ناس ، كيف تجدونني من خلال أفكارى ؟ هل أعجبكم ؟ هل أقع فى موقع الرضى عندكم ؟ ألست مع الشباب ؟ ألست مع الجيل الصاعد ؟ » هكذا ينطق لسان حاله .

وليس بغريب ان تكون النتيجة النهائية هى الفراغ الفكرى ، ما دام المفكر يتخلى عن مهمته الرئيسية والطبيعية التى هى البحث عن الحقيقة ، بعيدا عن كل المؤثرات الذاتية . والمفكر الحقيقى لايتملق للجمهور كما لا يتملق لاصحاب النفوذ والجاه . بل ، انه هو الذى يصدم الجمهور ويتعرض لنقده واستنكاره ، قبل أن يجد منه الاذن الصاغية . ومثال سقراط ، على قدمه ، لازال حيا الى يومنا هذا . بل انه اكتسب قيمة اكبر فى هذا العصر الذى اصبح فيه التفكير حرفة مبتذلة تلتقى فيه الادمغة من كل الاحجام !

ولذا ، فان المناقشة فى هذا الموضوع لا يمكن أن تكون مجدية الا اذا تجاهلت هاته الآراء المندفعة الفطيرة التى تولد مع الاصيل وتذهب مع الصباح ، وتملأ السوق كالبضائع الرخيصة التى يتجول بها آلاف الباعة !

وموضوع الاصالة طرح ، فى الحقيقة على المثقفين العرب منذ بداية النهضة العربية الحديثة فى القرن الماضى . طرح عليهم ، لا فى اطار الكماليات والترف العقلى ، ولكن فى اطار الضرورة الحيوية لمواجهة العصر بتحدياته المختلفة وللدفاع عن الكيان الذاتى . طرح على المصريين فى القرن الماضى لما أرادوا أن يبنوا دولة جديدة تتماشى مع روح العصر . وطرح على السوريين والعراقيين لما سرى فيهم الوعى بالقومية العربية منذ أواسط القرن التاسع عشر . وطرح علينا نحن المغاربة لما أردنا أن نقاوم الاستعمار ونفكر فى بناء المستقبل مع حلول القرن العشرين .

واتضح للجميع الحل الضروري الوحيد الذي لا مفر منه ولا علاج بدونه ، الا وهو ضرورة النقد الذاتي والاخذ بالحضارة العصرية في سائر وجوه الحياة ومرافقها . ولم يتردد اجدادنا في تطبيــق هذا المبدأ حيث اتخذوا الاساليب الحديثة في تجهيز البلاد بشبكات الطرق والسكك الحديدية وبناء السدود والقنوات للري ، وأرسلوا ابناءهم الى المدارس الجديدة ليدرسوا فيها العلوم الحديثة والفلسفة ويتسلحوا بالروح « العلمانية » التي تفتح مجالا واسعا للبحث والتفكير مستقلا عن المؤثرات الدينية . وليست المقاومة التي يظهرها اليوم بعض حملة الاقلام العتيقة لتسرب الحضارة الاروبية ، الا نوعا مما كان يسميه أبطال الحروب عندنا « بارود الشرف » ، مشيرين الى تلك الطلقات النارية المدوية التي كان يقذفها الجيش المغلوب قبل استسلامه !

وهكذا اذا نظرنا الى ردود الفعل الحقيقية التي صدرت عن العرب ، فاننا لا نجد فيها ترددا كبيرا ازاء الحضارة الاروبية . وكل ما كان هنالك من تخوف ولجاج ، انما كان مرجعه الى نوع من الانفة التي عرف بها العرب في تاريخهم والتي تجعلهم يرفضون مواقف الضعف والمسكنة .

وتلك وضعية ترسو فوق تناقض يسفر عن المأساة التاريخية في عمقها ، مأساة الغني الذي افتقر واصبح يمد يده للاغنياء الجدد فهؤلاء العرب الذين يقبلون اليوم على حضارة الغير لا ينطلقون من صفر ، ولا يستطيعون أن يطووا تاريخهم وينسوه في لحظة اندفاع وتحمس . هنالك ، اذن ، عوامل معقدة ومتشابكة لا تجعل من هذا الاتصال بالحضارة الاروبية مجرد اقتباس أو استعارة ، بل هو احتكاك دائم يؤدي بنا تارة الى أن نندب حظنا ، وطورا الى أن نعجب بما عندنا وبما ورثناه عن اجدادنا !

ومن ثم كان السؤال المطروح علينا ، حقيقة ، ليس هو : « هل نتبنى الحضارة العصرية ؟ » فهذا موضوع قد تجاوزناه منذ ثلاثة اجيال ، بل السؤال هو : « كيف الطريق الى تبنى الحضارة العصرية ؟ » ولنحاول أن نفهم هذا السؤال الاخير :

هل يكفى أن نقول اننا اصبحنا نفكر كما يفكر الاروبيون لنكون حققنا المعجزة وطوينا المراحل التاريخية التى تفصلنا عنهم ؟

وهل المسألة مجرد شعار يقال ويردد ؟

مشكلة الوسائل والمنهاج

هذا ما يوحى به ما نقرأه في بعض المقالات والكتب التى تحصر المشكلة فى موقف فكرى بسيط ، يرجع بنا الى السؤال الاول : « هل نتبنى الحضارة العصرية ؟» ومن آخر ما قرأت فى هذا الصدد كتاب صغير بعنوان : «أزمة الفكر العربى »٭ ما هى الفكرة الاساسية التى يدافع عنها المؤلف ؟ ان معظم الكتاب تمجيد للحضارة الاروبية واشادة بالعقل الاروبى ودعوة لنا نحن العرب بأن نتبنى دون تردد تلك الحضارة ، ولكن ، على أى أساس ؟ وبأى طريقة ؟ هذا ما لا يبينه المؤلف ، بحيث يعود بنا ، رغم كثرة ما يستعمله من اصطلاحات جديدة ويلجأ اليه من اقتباسات ايديولوجية وفلسفية ، الى النقطة التى بدأ منها اجدادنا منذ أزيد من قرن وهو الالحاح على ضرورة أخذ العلم والفكر عن أروبا . ونحن نجد أنفسنا مع هذا النوع من الكتابة الذى تتكاثر نماذجه فى الشرق العربى كما فى المغرب ، ندور فى حلقة مفرغة باستمرار . نسأل فى 1850 : « ماذا نصنع ؟ فيقال لنا : عليكم بالاروبيين ، خلوا عنهم ثقافتكم » ثم نعيد السؤال فى 1972 فيخرج لنا نفس الجواب فى المضمون وان كان يختلف من حيث الشكل والتقديم .

٭ صدر عن دار الكتاب لمؤلفه السيد مصطفى النهيرى

هكذا ، تمر مائة وعشرون سنة من التاريخ بأحداثها وتجاربها وتقلباتها ، دون أن يتغير شيء في رؤية الاشياء وتقييمها . وهذا نوع آخر من الجمود الفكري الذي لا ننتبه اليه ، مع أنه أخطر من الآخر لانه مغرور بما يرتكز عليه من مفاهيم تقدمية ، وما يستعمله من لغة جديدة تتلالأ بالمصطلحات من كل نوع .

نعم ، لقد عشنا مع الحضارة الاروبية منذ مدة طويلة اي منذ خرجنا عن عزلتنا الفكرية ، وعرفناها عن كثب واجتهدنا وما زلنا نجتهد في اقتباس منجزاتها . ووصلنا اليوم الى طور بدأت تطرح فيه علينا مشاكل من نوع آخر ، ياتي في اولها هذا التساؤل:

من المواقف الفكرية التي اصبحت تقليدية عندنا اننا أصبحنا نحمل انفسنا كل المسؤولية في « التخلف » الذي حصل لنا ونتهم أجدادنا وحدهم بالتفريط والتقصير ونتهم معهم حضارتهم وتفكيرهم، وننسى اننا نعيش في عالم قانونه الاكبر هو الصراع بين القوي والضعيف . والاستعمار ، أليست له اي مسؤولية في هذا التخلف؟ وعندما اقول الاستعمار لا أقصد به فقط ذلك الذي عرفناه في هذا القرن . بل ارجع مع التاريخ الى عهد الحروب الصليبية التي كانت اول هجوم استعماري تعرض له العرب منذ ثمانية قرون وتوالت بعده الحملات الاستعمارية عبر القرون التالية . وقد عرفنا ، نحن المغاربة ، حلقات من هذا الصراع المحتد مع الاستعمار منذ القرن الخامس عشر تبرزت ، بالخصوص ، في حركة الجهاد البحري التي نعتها الاروبيون بكلمة « القرصنة » قصد تحقيرها والتنقيص من شانها وجاريناهم ، عن غير وعي ، في هذا التحقير ، مع أن اجدادنا كانوا يقومون آنذاك بواجبهم الوطني في مقاومة الاستعمار، كل هذا يدفعنا الى هذا التساؤل : هل نهضتنا الحقيقية هي ، قبل كل شيء ، في مقاومة الاستعمار الذي لم يلق السلاح بعد ولازال يتربص بكل الشعوب الفتية أم هي في الاستسلام الفكري لحضارة المستعمر ؟

ان مقاومتنا للاستعمار الجديد المقنع او السافر هي ، في اعتقادي ، الطريق الوحيدة التي ترجع الينا الثقة بأنفسنا لانها ستحل كل هاته المتناقضات التي نعيش بينها والتي تفرض علينا نوعا من التمزق النفسي الدائم ، وهي التي ترجع الينا الشعور بشخصيتنا في أصالتها ، تلك الشخصية التي تتوارى الآن تحت الشكوك المفتعلة والعقد النفسية المتراكمة . نعم ، ان اصالتنا موجودة ولكنها تائهة لا ترى ولاتدرك بسهولة ، ومع ذلك فهي تعمل عملها في اللاشعور سواء بالنسبة للفرد أو للجماعة . ولعل اتجاهنا في طريق التحرر الحقيقي هو الذي سيجليها أكثر وأكثر للعيان . فالشعب الذي يدافع عن كيانه ، يصبح مسيطرا على مصيره ويرى بوضوح طريق نهوضه ويستغني ، بالمرة ، عن فكرة «الاقتباس» الخاطئة ، لان الحضارة هي ملك مشاع بين سائر الشعوب منذ بداية التاريخ . فاليونان اخذوا عن المصريين والبابليين ، كما أخذ العرب عن اليونان ، وأخذ الاروبيون عن العرب . فنحن نستفيد ، اليوم ، مما حققه الاروبيون في ميدان الحضارة دون أي مركب ودون اي غرور ، لاننا نعرف ان هذه الحضارة تحتوي على نقائص وعيوب أساسية ، بشهادة ابنائها أنفسهم . فهي التي أوجدت الانظمة الاستغلالية في أبشع مظاهرها من استرقاق وفيودالية وراسمالية . وهي التي صنفت البشر الى طبقات في المجتمع ، ولعل هذا من ارث الشعوب الآرية اذ نجد لذلك امثلة في الهند وايران القديمة ـ وهي التي اخذت بمبدأ القوميات الضيقة الذي كان سببا في صراعات وحروب . وهي التي انشأت ، في الاخير ، هذه الحضارة الصاخبة التي تسحق الفرد سحقا ، وتجعله يعيش في قلق نفسي ، نتيجة لما يعاني من استلاب .

أفيحق لنا ، بعد هذا ، أن نأخذ هذه الحضارة جملة دون اي تمييز ولا اختيار ؟ وهنا نجد انفسنا في موقف جدلي ، في الواقع . فالتاريخ يفرض علينا الاستفادة من هذه الحضارة ، ولكنه في نفس

الوقت يدفعنا الى النقيض وهو أن نحقق أنفسنا ونقوى شخصيتنا بين شعوب القرن العشرين . وتقوية هذه الشخصية لا يمكن أن تتم الا بانتزاع حريتنا كجماعة بشرية مؤمنة بنفسها ، والتصرف فيهامن أجل تصور المستقبل وبنائه .

قيمـــة التحرر الحيوية

والحرية هنا تتنافى مع فكرة التقليد لنموذج جاهز ، بل هى تدفع الى تجاوز النقيضين فى صياغة شىء جديد ، شىء يكون لنا حقيقة ، لانه يعكس المجهود الذى نبذله ونحن نصعد الى قمة الحرية فنحن فى حركتنا الحرة هذه نشعر أننا تجاوزنا وضعية الخضوع والاستلاب وحققنا ذلك الانسجام الذاتى .

وفى هذا الانسجام الذاتى نكون قـــد ارتقينا الى مستـــوى الاصالة ، لان حركاتنا العقلية او الجسمية ستستعيد خفتها وحيويتها بعد تحررها من التردد والشكوك والعقد النفسية وبعد تخلصها من عواقب الجهل والتغفل . وهنـــا سنكتشـــف دور التلقائيـــة وفضائلها فى حياة المجتمع . فالتلقائية ظاهرة ايجابية تحصل مع سلامة الكيان المادى والروحى لمجتمع ما وتوفره على كل وسائل القوة والنمو . وهى ، فى نفس الوقت ، تعبير عملى وطبيعى عن موقف جماعى من الحياة فى مختلف وجوهها ، بحيث تجد ابناء المجتمع وان اختلفوا كافراد فى عدد من المسائل الفرعية او الثانويـــة أو الذاتية ، فهنالك مسلمات اساسية تجمع بينهم وتجعل ردود فعلهم تلتقى فى المستوى الاعلى . ومتى انعدمت التلقائية فى مجتمع ما أو فترت ، فهى تدل على أزمة كامنة فى الكيان الجماعى تشل الحركـــة وتضع الفراغ امام حرية الفرد والجماعة على السواء .

والاتجاه فى هذا الطريق المؤدى الى اكتشاف الاصالة لا يمكن أن يستقيم ويتضح الا اذا تحررنا فكريا من عدد من الخرافات التى

يحاول الاستعمار أن يغرسها في اذهاننا بمختلف الوسائل ، وفي أولها الوسائل الثقافية :

ـ فهو ، أولا ، يحاول أن يغذي في نفوسنا مركب الخطيئة بالالحاح على اغلاط الماضي التي يحملنا وحدنا كامل المسؤولية فيها، كما رأينا من قبل .

ـ ثم يتقدم الينا ، ثانيا ، وقد شعر بان هذا المركب عمل عمله في النفوس ليقنعنا بأن الدواء موجود وهو في التحلل مما بقي فينا من قوة للرفض والاعتراض التي يسميها تعصبا والاندماج في الكيان الذي خطه لنا والذي يضفي عليه كل الالــوان والصفات البراقة .

ـ ويتخذ ، في النهاية ، حجة علينا من أوضاعنا الفاســدة ليقترح علينا البديل الذي يوافقه ويوافق مصالحه ، مستغلاً حسن نيتنا في نشدان التغيير ، شاعرا بان الحاح الظروف علينا لايترك لنا الوقت للاختيار الرزين المتأني المدروس . فنحن كالمريض المشفي على الهلاك الذي يقبل كل الادوية وكل الوصفات ، بدون تــردد .

كل هذا يفسر لنا كون عدد من المغاربة باتوا يعتقدون ، في وقت من الاوقات ، ان اللغة العربية ماتت وأن الفرنسية هي لغتنا الثقافية الجديدة ، وكونهم تعجبوا وخاب ظنهم لما رأوا العربية تنتعش من جديد وتجد وراءها مدافعين كثيرين من ابناء الشعب الذين لم يكن ينتظر وجودهم وتدخلهم . فانتعاش اللغة العربية وانتشارها بين الاجيال الصاعدة تحرر آخر من الاستعمار وتحقيق في نفس الوقت لاصالتنا .

وهذا المثال يبين لنا الاخطار التي تنطوي وراء « الاستعمــار الثقافي » وعدم الوعي به ، على الخصوص . فهنالك من ينكر وجوده ويعتبر أن الاستعمار اقتصادي ، في الاساس . وفي ذلك غاية ما

يمكن من الغفلة والبلاهة . ولننظر الى هذه الملايير العديدة التي تنفقها الدول الكبرى على اشعاعها الثقافي في الخارج ، هل تفعل ذلك عبثا او لمجرد الخير والاحسان ؟ ولناخذ مثالا من المعارك الثقافية التي خضناها ولازلنا نخوضها من أجل مغربة التعليم وتعريبه ولننظر الى استمرار ادارتنا العمومية في استعمال اللغة الاجنبية كلغة رسمية في المكاتب والدواوين مع أنها تتعامل مع جماهير لاتعرف الا اللغة العربية . أليس في هذه الامثلة ما يقنعنا بأن للاستعمار الثقافي وجودا فعليا وأن له وسائله وخططه التي يتوصل بها الى اهدافه . ولازال مثال بعض الجامعات الاجنبية الموجودة ببعض البلاد العربية بالمشرق يذكر اليوم كشهادة على ما يمكن أن يكون لها من أثر في ضعف الحاسة الوطنية والميوعة الفكرية .

ان الاستعمار الثقافي وسيلة من وسائل الاستعمار الاقتصادي، ولربما كانت هي خير وسائله ، لما تضمنه من استرسال واستقرار في العلاقات البشرية . فنحن تحررنا سياسيا من الاستعمار ، ولكننا لم نتحرر منه ثقافيا . واذا تأملنا الموضوع مليا ، على ضوء الوقائع والوثائق الصحيحة ، نجد ان التبعية الثقافية تكون خير دعم للتبعية الاقتصادية والسياسية في ظروفنا الحالية .

نعم ، انني أميز هنا التبادل الثقافي بين الشعوب المبني على تخطيط ودراسة ومساواة في التقرير والاختيار عن الثقافة المفروضة بوسائل الضغط والاغراء والحيلة . كما اميز بين الاقتباس الحر الذي نقدم عليه بمحض ارادتنا وذوقنا وبين ما نستطيع ان نسميه « شحن الاذهان » بوسائل الدعاية والاشهار أو عن طريق العنف الفكري الذي يلجم العقول بالوسائل النفسية الكثيرة ، التي ابتكرتها تقنية هذا العصر المجنون ! ولست في حاجة الى تكرار هذه الحقيقة البديهية وهي اننا مفتقرون الى التفتح والاطلاع على ما عند

الغير ، ولكن بروح النقد لا بروح الاستسلام والاماعية . وكما أننا يجب ان نكون يقظين مع أنفسنا ، منتبهين لمواطن النقص والعيب في ذاتنا ، كذلك يجب أن نكون مع الغير حتى لا نكون متهورين مندفعين نتحرك بآلية العواطف .

ولنكن متيقنين ، على أى حال ، آن ثوريتنا لن نكسبها من هذا الباب . فالثورة لا تأتى من باب الاقتباس ، والاستعفاء من مهمة التفكير الشخصي والاستسلام للغير . ولا تأتى عن موجات الاعجاب والتحمس العابرة . انها أكثر جدية وعمقا من ذلك . انها ، أولا ، لاتعبر عن ارادة افراد معزولين وانما عن كيان جماعي . ومعنى هذا أنها تلتقي فيها ارادات ورغبات متعددة ومتنوعة ، ولكن يبقى مع ذلك مقياسها هو شعور الجماهير واتجاه مطامحها . ثم انها ، ثانيا ، لا تبقى معلقة فى الخيالات والمثل ، بل تستند الى الواقع ولا تنجح الا بمقدار معرفتها بكيفية ملابسته وتتبعه فى كل ابعاده وطواياه . وهذا الواقع انسانى ، قبل كل شيء ، أى قابل للتغير باستمرار . وهي ، ثالثا ، لها اطارها الخاص بها بالنسبة لكل شعب ، بحيثانها تتغير شكلا ومضمونا من بلد الى بلد .

لذلك ، فان ما نقرأه فى كتب الغير وصحفه لا يمكن أن يقدم لنا الحل الجاهز ، ولا أن يبين لنا ماذا يجب أن نعمل بالضبط ، وانما يعرض علينا جملة من المشاكل وحلولها عند شعوب أخرى ويقترح علينا بعض الافكار العامة ، بحيث اننا عندما نستعمل كلمات ديموقراطية واشتراكية وتقدم كمفاهيم تجريدية ، يبقى علينا أن نعطيها محتواها المفصل عند التطبيق فى مجتمعنا . وآنذاك لاينفعنا الا مقدار تفكيرنا وادراكنا للواقع وتحليله فى كل معطياته. وهنا نلمس ، أيضا ، وجها آخر من الاصالة .

حق العرب فى تراث اليونان مثل حق الاروبيين

وثمة نوع آخر من الاخطاء التاريخية يجب أن ننتبه اليها . فكثيرا ما نجرد أنفسنا من أشياء هى إنا وننسب للغير أشياء

ليست له ، فنزيد « فقرنا » فقرا ونزيد « غنى » الآخرين غنى .
وهنا أعود ، مرة ثانية ، الى الكتاب الذى ذكرت آنفا « أزمة الفكر العربى » يقول المؤلف (ص 161) :

« ان الفكر المعاصر ، ذى (كذا !!) الجذور الاغريقية والرومانية هو الفكر الغربى الذى انفرد بقيادة الفكر العالمى الراهن وليس هو الفكر البوذى او المسيحى أو الاسلامى أو اليهودى أو الكونفوشى (مع الاسف أو بدون أسف فلسنا هنا بصدد العواطف وانما هى وقائع عينية يومية) هذا مع ايماننا بتفاعل عناصر الحضارات البشرية والوحدة البيولوجيه إللنوع الانسانى » .

ولننظر ، ولا ، الى الخطأ الذى يكمن فى المقابلة بين احداث متباعدة فى التاريخ . فالفكر المعاصر هو وليد القرن العشرين ، وهو بهذه الصورة قد ورث كل التجارب التى سبقته فى التاريخ واستفاد من الفكر الاسلامى والمسيحى واليهودى والبوذى ، كما استفاد من التقدم الذى حصل فى العلم والحضارة عبر العصور التاريخية ، فكيف يصح لنا أن نقوم بهذه الموازنة الصبيانية بينه وبين الفكر البوذى الذى وجد منذ أكثر من ألفى سنة .

والخطأ الثانى يكمن فى ذلك التناقض الواضح بين التسليم بتفاعل الحضارات البشرية ، من جهة ، والتصريح بأولوية فئة خاصة من الشعوب فى ميدان الحضارة ، من جهة أخرى . فاذا كان هنالك تفاعل فمعنى هذا ان التبادل قائم منذ قديم وأن عوامل متعددة تجعل اليونان ، تارة ، يبرزون فى مسرح التاريخ ، وطورا العرب ، وثالثا أروبا ، وأن السبق هنا ليس له صبغة نهائية ولا حتمية . والتجربة التى نعيشها اليوم تبين لنا كيف أن الزعامة تنتقل عبر القارات ولا تبقى وقفا على بقعة جغرافية معينة . ولذلك فان انفراد « الفكر الغربى » بقيادة الفكر العالمى رأى تفنده الاحداث العالمية اليوم . فنحن نرى ، بالعكس ، الفكر الشرقى يظهر اليوم أكثر ديناميكية من الفكر الغربى . ويكفى أن نذكر مثال « الثورة

الثقافية » التى خرجت من الصين وزعزعت شباب أروبا . ومن يضاهي ، اليوم ، بين مفكرى أروبا زعيما من نوع « غانـدى » الذى بهر العالم بكفاحه ومثاليته ونوع تفكيره ؟ ودولة اليابان التى استطاعت اليوم أن تخطو خطوات جريئة فى طريق التقدم وتتفوق على معظم دول أروبا علما وتنظيما ، أليست تفند هذه الفكرة العنصرية التى تريد أن تحتفـظ دائما لاروبـا بمركز القيـادة والتفوق ؟

يبقى ، بعد ذلك ، خطآن تاريخيان شائعان نجد أثرهما واضحا فى تلك الفقرة التى أوردناها . وتتعلق الاولى بمفهوم « الفكـر الغربى » ، ماذا تعنى تاريخيا وجغرافيا وفلسفيا ؟ واذا كنت ألقى السؤال الآن ، فانى لا أجرؤ على الجواب لانه يتطلب توسعا فى الكلام . ولكن ، كل ما استطيع ان اؤكد هو أننا كلما حاولنا أن ندقق هذا المفهوم ونحدده ، فانه يتبخر امام اعيننا لانه لا ينطبق على واقع معين ، مضبوط . فهل هنالك ، بالفعل ، « فكر غربى » نموذجى أمام العديد من النظريات والمذاهب المتناقضة التى تمخضت عنها الثقافة الاروبية ؟ وكيف يمكننا أن نجمع فى كفة واحدة بين تجريبية « بيكون » و عقلانية « سبينوزا » ونقدية ((كانت)) ، وجدلية « هيجـل » ووجودية « هايدجيـر » ؟ الواقـع أن كلمـة ((الفكر الغربى)) من الكلمات التى يتضايق بها العلم الصحيح حينما يريد أن يدرس الاشياء بموضوعية وعن كثب . وكذلك المقابلة بين الشرق والغرب التى ورثناها عن المنطق الاستعمارى .

والخطأ الآخر والاخير يكمن فى هذا الخلط بيـن اليونان والرومان ، من جهة ، وأوربا الحديثة ، من جهة أخرى ، ان فكرة أروبا لم تظهر ، تاريخيا ، الا بعد مرور ألف سنة على الميلاد . أما روما واليونان فلا يمكن اعتبارهما دولتين قائمتين فى اطار أوربى يقول الكاتب الفرنسى « ايمانويل بيرل » :

« خرجت أوروبا شيئًا فشيئًا بين القرن التاسع والقرن السادس عشر من أنقاض رومانيا وأخذت تعيش حياة متميزة لم تكن لها فيما قبل . وبالفعل ، فان اليونان القديمة ليست بأوروبا . بل انها كانت تشعر أن رابطتها بآسيا الصغرى وافريقيا الشمالية أقوى من رابطتها بالبلقان . ومن دون شك أن الادب هو الذى جعل من الحروب الميدية نزاعا بين أوربا وآسيا . وقد كان أسطول داريوس وجيش فيروش يحتويان على عناصر يونانية كثيرة . والواقع أنه منذ حرب طروادة والفكرة الهلينية تبحث عن وحدتها سواء من جهة الشرق او الغرب .. والامبراطورية الرومانية بدورها لا تلتزم بتاريخ أوربا . فقد كانت أقاليمها الافريقية والاسيوية تهمها مثل الاقاليم الغربية واكثر منها » . (أروبوا وآسيا ص 20).

هذا كاتب أوروبى تدفعه موضوعيته العلمية الى أن يسلم بالحقائق التاريخية ولا يظهر من التعصب لاروبا ما قد يصدر عن بعض حملة الاقلام عندنا . ولذلك ، فاعتبارا للتاريخ أريد أن أؤكد هذا الواقع وهو أن العرب ورثة للحضارة والثقافة اليونانيتين ، بنفس الدرجة التى يدعيها الاوروبيون لانفسهم أو ندعيها نحن لهم . بل ان العرب سبقوا الى تسلم هذا الارث اليونانى قبل غيرهم ، وقد كان منتشرا قبل الاسلام فى بلادهم بسوريا والعراق ومصر ثم نقل الى العربية ابتداء من القرن الثانى .

وهنا ، لايسعنى الا أن أكون مختلفا ، على طول الخط ، مع « رجاء النقاش » حين يقول فى معرض حديثه عن «لطفى السيد» وترجمته لارسطو :

« فلطفى السيد لم يفهم الحضارة الغربية فهما سطحيا يقف عند مظاهرها الخارجية . بل فهمها فهما عميقا واتجه الى حقائقها الجوهرية الكبرى ، والى جذورها العميقة ، وما أرسطو الا حقيقة كبرى من حقائق الحضارة الغربية وجذر من جذورها الفكرية

الرئيسية ، بل انه فى الواقع هو مركز العقلية الغربية والمنهج الغربى فى التفكير .»

ولكن ، هل نسى صاحب هذا الرأى أن ترجمة لطفى السيد لارسطو جاءت بعدما ترجمه العرب الى لغتهم منذ أزيد من اثنى عشر قرنا ؟ وهل نسى أن الاروبيين لم يعرفوا أرسطو على حقيقته الا منذ أربعة قرون ، مع عصر النهضة الاروبية ، وبفضل ابن رشد الذى كانت تدرس فلسفته بالكوليج دى فرانس فى أواسط القرن السادس عشر بأمر من فرانسوا الاول ؟ يقول « اميل بريهيى » المؤرخ المشهور للفلسفة بفرنسا :

« فى أواخر القرن التاسع الميلادى ، كان الرجل العربى يمتلك فى لغته الآثار الكاملة تقريبا لارسطو (لايستثنى منها الا السياسة) مع شروح الاسكندر وفرفوريوس وتيميستيوس وآمونيوس ويوحنا فيلوبون » (تاريخ الفلسفة : الجزء الاول 614/3) .

ان أثر أرسطو واضح وعميق فى الثقافة العربية ، بصفة عامة ، وفى الفلسفة بالخصوص . ومنطقه ظل يدرس فى كل المعاهد الاسلامية مع الشروح المختلفة . نعم ، ان عصر الانحطاط اقترن بركود عام فى مجال البحث الفلسفى وطغيان الجمود والرجعية الفكرية فى المجتمعات الاسلامية ، ولكن ذلك لاينبغى أن يحجب عنا الحقيقة التاريخية التى يجهلها عدد من العرب حينما يتلقفون النظريات الاروبية المغرضة كفقه مسلم ، وهى أننا ورثة للثقافة اليونانية ، على الاقل فى كل ما كان له طابع العلمية والجدية من رياضيات وطب وفلك وفلسفة الخ ..

ومن هذا المثال يتبين الاثر الخطير الذى ينجم عن الجهل بتاريخنا القومى عندما نريد أن نخطط لنهضتنا فى الحاضر والمستقبل . فلازال التاريخ الاجتماعى والحضارى والثقافى لم يدرس عندنا على حقيقته ليعطى كل ثماره . مما يتيح للمتسرعين فى

النظر والحكم الى نقل بعض المفاهيم والمصطلحات التاريخية الاروبية وتطبيقها دون تحر على تاريخنا من ثيوقراطية واقطاعية وبورجوازية ورقية الخ .. مع أن هذه الكلمات لم يستعملها الاروبيون حتى دققوا معناها بالرجوع الى الوثائق والشهادات وبالتعمق في دراسة الاوضاع الاقتصادية وتطورها في مجتمعاتهم .

هذه المشاكل المنهاجية التي استعرضناها ، ونحن نتساءل : من أين نبتدىء في هذه المسيرة الطويلة ونحو النهوض الحقيقي، بينت لنا أهمية مفهوم الاصالة في التفكير النظري الذي يجب أن نتسلح به كمثقفين في عملنا الفردي أو الجماعي .

اننا ، أولا ، لسنا بالمثقفين المائعين ولا المخنثين ولا المتعهرين الذين لا يردون يد أي لامس . بل يجب أن تكون لنا اختياراتنا الواضحة وفكرتنا البينة التي ندافع عنها بكل شجاعة . ولذا ، فنحن لا نعتبر مجتمعنا وعاء فارغا يطلب منا ان نملأه بما يتصدق علينا به الغير . بل انه ، كما هو في حاجة الى أن يأخذ ، فله ما يعطي . وهذا العطاء الذي لاتخفى أهميته الحيوية في كل محاولة للتغيير هو ما نسميه ، بالضبط ، الاصالة . ثم ان النهوض المنشود لايتحقق بمجرد تلقيح الافكار بالافكار وانما في السير الدائم نحو التحرر من الاستعمار وكل هياكل الاستعباد والاستغلال . وفي الصراع من أجل هذا التحرر الذي يباشره المثقف مع الجماهير سيكتشف الافكار الصحيحة والصالحة ، لانه سيرتبط بشعبه برباط حقيقي ملموس وسيتخلص من الافكار والاوهام التي يبثها الاستعمار الثقافي بأساليبه الماكرة الخفية . وسينزل آنذاك فوق ارضية تنكشف له فيها الاصالة القومية على حقيقتها . بحيث ان الاصالة تكون هنا ،

وفي نفس الوقت ، غاية ووسلة للنهوض في حركة جدلية لا تنقطع. ويبقى بعد هذا للتاريخ أهميته كسند معنوي للتجربة الحاضرة وكاطار للطموح القومي . وذلك لايتسنى ، طبعا ، الا بالاهتمام

بالتراث وتقويمه تقويما علميا موضوعيا ، حتى نعرف مالنا وما علينا وحتى لا يطغى عليه التحريف والتشويه فنعيش من جراء ذلك بمركب الخطيئة ، أو ندخل فى بحبوحة الغرور مع أولئك الذين لا يرون فى تاريخنا الا سلسلة من الامجاد .

يبقى علينا بعد هذا أن نتساءل : ما مصير هذه الاصالة مع التحولات الجذرية التى نحن مقدمون عليها ، لا محالة ، بالانتقال من وضع المجتمع الفلاحى الى المجتمع الصناعى ؟ ذلك ما سنعرض له فى مقالنا المقبل .

احمـد المجاطي

من تجليات الغربة وراء اسوار دمشق

« انك حين تفتح ذراعيك لتستقبل الحياة ، تكون قد رسمت خلفك علامة الصليب »

اراغــون

وقال البارودي ، بعد ان اضطرب زمنا بين ارض النفي وارض المعـاد :

« وكما أن دمشق لا تكون دوما دمشق البعث ودمشـق الثورة ، فكذلك البانة ، لا تبقى واحدة البان ، فقد تصبح رمحا وقد تصبح عصا ، غير أنها ربما اصبحت حية تسعى »

(1)

وحين تجلـت
وحين تمازجت الريح والخمر فيها
وأمست ولادة حرف وفرحة بدء وفجر قصيدة
وأمست دمشق العقيدة
وحين تجردت فيها
فأمسيت بحرا وغيما ونوءا
وأمسيت كلا وجـزءا
لماذا توارت عن القلب حتى تفجر سر النواة
وألقيت في سرنديب(1) القصية
وقيل نسـوك ،
فما أنت فيهم سؤال على وتر من رباب
ولا بيت شعر على هامش من كتاب
ولا نقشوا اسمك حتى على شاطىء اللاذقية .

(2)

وتبحث عن غوطة الغرب فى كل ملهى ، وفى كل حانه !
وفى كل درب تجوع البنادق فيه وتعرى !
وفى كل كأس قرارتها تاج كسرى !
فيهدأ من بردى الموج والريح ، تهدأ حتى الطلول
ويعلو مع الصمت صوت يقول :
— « دمشق على سفح قاسيون بانه
وشاهد قبر جفته المنون
دمشــق تخون »
ويبحر باب دمشق
وملهى الوليد وقصر هشام
وتبحر حتى قبور الشآم
وأنت على الميل ملقى
يغيض بأمطارك السيف والحرف ، حتى تعود الجروح دواة ،
وتغلو الدواة زجاجة خمر
ويخرج من كل شيء سواه .
فسيان أن يثمر الحقل باذا
وان يثمر الحقل خنجر غدر
ومنفاك منفى سحيق ، ولكنه ملكوت
وانك حى وأنت تموت

(3)

وقيل علا النقع والطعن حتى كبا بعرابى الجواد
وقيل تجشأ فى سرنديب الجراد
وجف بها الزرع والضرع والخمرة البابلية
ولم يبق الاك للبيد والخيل والكلمة المستحيله
ولم يبق الا ك يبعث من قبة الموت فيها دمشق القتيله
وأنت على كل ضربة فاس صليب وكف مجوفة ومداد

فمن يكتب اليوم حتى على قبضة من دخان :
« دمشق على متن ظبية بـان
تعود الى شاطىء الاطلسي
تمد ظفائرها ، تتجدد ، تمسى ولادة حرف،

وفرحة بدء ،

وفجر حقيقة .

تشق باصبعها قبة الموت ، ترجع معشوقة وعشيقة »
فمن يكتب اليوم حتى على شاهد القبر ، حتى على شاطىء اللاذقية

سرنديب : واحدة من كبريات مدن جزيرة سيلان التى نفى اليها البارودى بعد انكسار الثورة العرابية ، وقد تكرر ذكرها فى شعره المكتوب فى المنفى ، وهى فى القصيدة رمز للجفاف والغربة والموت ونقيضها فى ذلك دمشق وتوابعها المكانية : الغوطة ـ قاسيون ـ بردى ـ التى ترمز للخصوبة والثورة والحب .

جان ـ ماري دوميناك   ترجمة : عبد السلام بنعبد العالي

الكلمة الاخيرة في الاستلاب

2

انتقاد مفهوم الاستلاب

هاهو ذا مفهوم الاستلاب قد استقام من جديد ، كصرح ضخم متعدد المنافذ ، فهو :

ـ **في معناه القانوني** : « انتقال ملك منقول او عقاري من شخص لآخر » ، وهو ، بالتالي ، ضياع ارادي أو قسري لحق طبيعي؛ وهـــو :

ـ **فى معناه النفسانى والسياسى** : انفصال المبدع عما ابدعه، والعامل عما انتجه ، وهو ايضا طلاق بين الشاعر ولغته ، وبين المواطن وقومه ، وبين الانسان وتاريخه .

وهناك مد يربط هذا المعنى بالمعنى السابق : فالمعنى القانونى الذى كان اول معنى اتخذته الكلمة ، والذى كنا نميل الى تناسيه، قد استعاد قوته بعد أن دخل التاريخ السياسى : فأصبح الاستلاب يعنى فى ذات الوقت **فقدان** ثروة او ماهية ، والحرمان من موطن او تاريخ او حرية . وفى الاخير اتخذ هذا الاستلاب معناه النهائى عندما دخل ما فيه من امتعاض وجنون فى :

ـ **معناه فى الطب العقلى** : فالخلل العقلى ، الذى نجد تأويلا له عند الفلسفات الوجودية ، هو غزو الذات من طرف عنصر غريب عنها ، « انه الآخر وقد اكتسحنا اكبر اكتساح» (12) .

وقد اكسب التحرر من ربقة الاستعمار ذلك المفهوم المتعدد المعاني قوة جديدة : فتبنى الافارقة والعرب والاسيويون ، وهم يبحثون عن شخصيتهم المسلوبة ، لغة صيغت من اجل ثورات أخرى . وها هى ذى أصوات ترتفع ، كرد فعل غريب ، داخل « الامم البيضاء » التى لا تنتمى الى البروليتارية العالمية ، لتفضح الاستلاب سواء عند الكنديين الناطقين بالفرنسية او عند غيرهم.. فالتعصب الاقليمى قد اصبح سائدا ، وهنا أيضا يتجلى التباس مفهوم تتعاون على فهمه الماركسية مع النزعات التقليدية . فهل سنرى ما يسميه البعض « الاجناس » وقد شعر الواحد منها تلو الآخر ، شعورا مضنيا بالحرمان والانفصام ، ذلك الشعور الذى يبدو أنه ينطبق على جميع اوضاع اللا مساواة سواء أكانت بين الطبقات او بين الاجناس او بين الامم ؟

وان الامر يتعلق ، بصفة أعم ، بالشكل الذى تتخذه حياتنا المعاصرة . اننا عندما نتحدث عن الاستلاب سواء بصدد العامل المنهك او ساكن المدينة الذى حرم مادة الكلوروفيل او المستهلك الذى تطبعه الدعاية ، فاننا نقصد أزمة اصابت الحضارة وعصابا نتج عن اشباع وسأم وخلل اصاب الذاكرة وصعوبة فى التكيف مع الايقاع الجنونى للتقنية الحديثة ومتطلبات الصناعة . والواقع ان ذلك هو ما يحدثنا عنه (يونيسكو) و (بيكيت) وذلك ايضا ما كان فيلم (غودار) « الفافيل » يزعم التعبير عنه : لا مكان للانسان فى هذا العالم الذى تسوده العقلانية ويدفع اليه الانسان ، بكل قساوة ، عن طريق التقنية والادارة . واذا كان الامر كذلك ، أفلسنا كلنا مهددين بشكل ما من الاستعمار ـ ألسنا كلنا مسلوبين سواء كنا من بين السادة أو من بين العبيد ، من بين الاغنياء أو من بين الفقراء ؟ ان الاستلاب لا يصيب المملوكين فحسب ، بل انه يصيب المالكين انفسهم . كان (مونيي) قد فضح استلابا أعم من ذلك الذى يعانيه المحرومون : وهو الذى يضيع فيه الانسان فيما

ينتجه ، وتفتقر فيه النفس فى حضارة قائمة على الانتاج ، افلا يجب أن نميز بين نوعين من الاستلاب كما يفعل (فرانسوا بيرو) (I3) عندما يفرق بين الاستلاب الذى يقوم **خارج** المشروع وذاك الذى يقوم **فيه** ، استلاب الجهاز واستلاب داخله ؟

لقد عمت المصيبة جميع انحاء الدنيا وان تفقد المستلبين سيعبر بنا الارض كلها . ان هؤلاء الذين يعانون الاستلاب هـم عمال وأجناس ملونة وقوميات تبحث عن شخصيتها ، بل هم نساء أيضا ؛ وحتى اولئك الذين يتحررون من الاستلاب لا يعملون الا على أن يقعوا فى استلاب آخر من درجة ثانية : انهم دواليـب الآلة الكبرى وحشرات المدن ، وعبيد البيروقراطية وهـم مناضلـون سممتهم الدعاية ومستهلكون غذتهم وسائل النشر والاشهار ... يحاول بعضهم أن يفلت من قبضة شىء أساسى يقهره ويشل قواه ويريد البعض الآخر ان يستعيد شيئا يحلم به حلمه بالصبا . يختنق البعض تحت قهر « طبيعة » ويطمح الآخرون فى أن يصبحوا كائنات طبيعية . اما عن اولئك الذين لم يعـوا ذلـك الاستـلاب الشامل ، أفليس ذلك لانهم اكثر الناس استلابا ، اولئك الميؤوس من علاجهم ؟ « ان الاستلاب يسعى نحو شمول لم يبلغه شىء حتى الآن ، لان ذلك الشمول يفترض اجتماع اسباب الاستلاب ودواعيه كلها ؛ ولكن الاستلاب الكلى يقترب باختفاء الوعى بالاستلاب» (I4).

وهكذا اصبح الاستلاب اللفظ الذى يصلح دائما للتعبير عن مرض القرن ، والمكان المشترك للصراعات السياسية والتحليلات النفسانية المجتمعية . انه عندما فقد معناه المحدد ، فقد النفى الجدلى الذى اعطاه اياه كل من (هيجل) و (ماركس) ، واصبـح يعنى غيابا للوجود والامتلاك ، غيابا ذا اشكال متعددة متباينة . انه مفهوم علاجى اكلينيكى تجد فيه جميع امراض القرن أسرتها . ولكن تلك الامراض لا تجد فيه علاجها . بل على العكس من ذلك فان هذا اللفظ ، بسعة معانيه والوقع الرهيب الذى يعطيه

اياه معناه الطبي ، يزيد من المرض ويعذب المريض ويدفعه الى كشف مضن عن الاسباب العميقة لآلامه . فيبدو له ان « طبيعة » ما قد غيرت اوضاعت وفقدت .. فكيف يسترجعها ؟ كيف يستعيد حقيقة ذاته ويتحد من جديد مع وجوده الاصلي ؟ والواقع اننا اذا ما رجعنا الى المحاولة العظيمة التي قام بها (جاك بيرك) ليضم ، من وجهة نظر جدلية شاعرية في ذات الوقت ، كل اشكال الاستلاب ، فاننا لن نتمكن من بلوغ الحقيقة التي قد تهدينا وستجد انفسنا مهجورين عند عتبة التوجيهات الحاسمة ، امام عبارات مجردة فضفاضة .
حقا ان الاستلاب عند (بيرك) لا يصغي في « نداء ميتافيزيقي » ولا في تفاقم الصراع ولا « في نفي الآخر » بل في علاقة تصالح بين الثقافة والطبيعة ، تلك العلاقة التي لا يقول لنا (بيرك) عنها شيئا. « ليكن الصراع ضد الآخر تصالحا ، ولتتلاق الشمولية والتفرد » ان كل هذا صحيح ؛ ونحن على أتم الاستعداد « للنزول من جدل سطحي الى جدل داخلي ، جدل المعاني » ، ولكن من الذي سيؤول تلك المعاني ؟ وحسب اي معيار ؟ ها نحن ، بعد أن ملأنا التاريخ دما وتقتيلا ، قد ارتقينا معتلى ثقافيا نتامل من فوقه منظرا جميلا ، ولكنه محزن . ألن يبدو لنا ازدياد التلقائيات المكبوتة كدرامة نفسانية من نوع « مارا ـ ساد » (I5) ، ولكنها درامة تساهم في تشخيصها كل الشعوب في رجة فوضوية جنونية ؟ ان (بيرك) لا يتردد في الاشارة الى ذلك المعنى فهو يقول : « ان التحرر من ربقة الاستعمار هو العلاج النفساني الناجع لسكان الارض » ولكن أيمكن أن يكون التاريخ تمثيلا مسرحيا بالنسبة للمشاهد ام بالنسبة للمحلل النفساني ؟.. يذكرنا هذا بالانتقاد الذي رد به (ماركس) على هيجل حيث كتب : « ان تاريخ الاستلاب والقضاء عليه ليس الا تاريخ انتاج الفكر المجرد المطلق ، الفكر المنطقي النظري » . فربما لن نتحرر من الاستلاب الا لنتغلغل فيه بشكل أعمق ونسقط في الاستلاب الاساسي الذي يعزل المثقف عن الواقع . هذا بالاضافة

الى أن (هيجل) كان يجعل من الاستلاب محرك تاريخ ينمو وينتظم، اما الاستلاب في المعنى الذي يتخذه (بيرك) فهو يدعنا امام ركام بركـــاني .

اننا لن نرد على ذلك بأن الطبيعة قد مزقتها وأفقرتها تقنية الغرب وأمبرياليته وأن عليها أن تأخذ في العودة الى التاريخ . ولكن يجب أن تكون تلك العودة من اجل تحقيق تاريخ حسب ارادات وقواعد وأهداف لا لكي يصبح التاريخ « محل ازعاج » . والا فربما سعى التاريخ نحو التطابق مع استهلاكه الذاتي واصبح اغراء وتمتعا باللحظة لفائدة اولئك الذين يعرفون تذوقه وهم خارجون عنه ، (وتلك هي النتيجة الخطيرة التي نرى أن محاولة (بيرك) تتأدى اليها) (16) . ويبدو لي ان محاولة (بيرك) تتأدى الى اشكال يماثل ذلك الذي واجهه (ماركس) : ماذا سيكون محرك التاريخ عندما يمحى الاستلاب ؟ ان المستعمر (بفتح الم) عند (بيرك) يلعب دور العامل عند (ماركس) ، فهو الوجه الحقيقي الجديد للاستلاب . ولكن كلا من العامل والمستعمر ، عندما يتحرر من الاستلاب باستعادة ما فقده ، يوقف التاريخ ويقضي عليه . وان كل محاولة تركيبية ترفض تجاوز القيم ، محتوم عليها بأن تتأدى الى « ايقاف التاريخ وانهائه » .

ولكن ممثلي المسرحية ، متروكون ، في انتظار تلك النهاية ، لما يحددهم به سلوكهم . فكيف يمكن ان نتجنب ان كون التلقائيات المتكاثرة ، في كبثها عن شيء اساسي ، تتأدى الى عنف بدون رقيب؟ ان الوضعية العلمية ، والمعايير القانونية والامل في مجتمع دولي تسوده العقلانية ، ان كل ذلك مهدد بأن يقع في هذه البلبلة . وكان (فرانز فانون) قد اعلن منطلق هذه الاخلاق الثورية عندما كتب « الحق هو ما يحمي الاهالي ويقضي على المستعمرين (بكسر الم) فلا مجال لسلوك حق في ميدان الاستعمار »(17) ولكن أين ينبغي ان نضع حدود الطغيان ، تلك الحدود التي يبرر بعدها كل كذب او عنـف ؟ . . . .

القضاء الحقيقي على الاستلاب :

تساءل (هنري لوفيفر) عن مضمون الاستلاب في كتابه الحديث المثير (ما بعد الفلسفة) (18) . وهو على كامل الحق في أن يلفت نظرنا ، في هذا المؤلف ، الى أن « الاستعمال المتطرف (اي الانطلوجي) لمفهوم الاستلاب يرجع الى وجهة نظر غيبية أو الى تأمل ميتافيزيقي » . لقد كان لمفهوم الاستلاب معنى في النطاق الذي كان يستعمله فيه (ماركس) ولكن ، ما لم نستعمل ذلك اللفظ للتعبير عن وضعية العمال في النظام الرأسمالي ، بل عن مجموعة من الاوضاع المتباينة (19) فانه يأخذ هذه الصفة اللا محددة المعكرة والمحتضنة للمعاني المسيحية الزائغة . انه يعود بنا الى ماهية انسانية يزعم انها نقية طاهرة والى كمال مفقود ؛ انه ، كالاجرام (الذي يربط به في غالب الاحيان) جزء من الدين لم يعد مرتبطا باسطورة الخطيئة الاصلية ، فوقع على كاهل الانسان وحبسه في شقاء لا خلاص منه . فاذا كنا نقصد تلك المعاني ، فلنتحدث بالاحرى عن الظلم او عن الاغتصاب ، عن الامتعاض او عدم المساهمة او فلنستخدم لفظ التشييء ولنكف عن استعمال لفظ الاستلاب .
اما اذا اردنا الحديث عنه فيجب الا يكون حديثنا كما لو كان عن شر مطلق ذي اعراض لا حصر لها ، بل عن نقص في الانسان، نقص في وجوده ، نقص هو من طبيعته كانسان ويمكن ملؤه شريطة ان يعترف به وأن يقبل . اننا لن نستطيع القضاء على الاستلاب انطلاقا من استقلال او امتلاء اصليين ، بل ، بالاحرى ، انطلاقا من عبودية اصلية . ذلك لان الانسان هو في اصله كائن يعاني الاستلاب (20) . وان اكثر ميادينه انسانية وأصالة لهي اكثرهـا استلابا : ان لغتنا واهواءنا ومدينتنا وتجذرنا الوراثي هي اكثر الامور استلابا .. فأي شيء اكثر استلابا من هذه الالفاظ التي نتلقاها عن الآخرين ؟ واي تجربة اكثر استلابا من الابوة ؟ ان هذا النوع من الاستلاب يحدد حريتنا ويكون منطلقا لتقدم آخر استطلاعات اخرى (21) .

بقي شكل الاستلاب الذى لاحظه (ماركس) وبينه وهو استلاب العامل المفصول عن عمله . ففى دراسة قيمة لكتاب (بيير موريس) (22) ، يميل (بيير نافيل) ، الذى اهتم بهذا الموضوع اشد الاهتمام، (23) الى التخلي عن هذا اللفظ مفضلا لفظ « الاستغلال » . فبينما يرجعنا الاستلاب بالضرورة الى ماهية تتحدد فلسفيا ، والى علاج غير دقيق ، يهتم مفهوم « الاستغلال » بموقف عيني اقتصادى اجتماعي قانوني . اى انه يردنا الى امور تتعلق ببنيات المجتمع ، ولكنها لا تتعلق بتلك البنيات فحسب : ان (نافيل) يميل الى الاعتقاد ، وهو متفق في ذلك مع (بيير موريس) ، بان الاستغلال يتعلق بمجموعة معقدة من العلاقات البشرية وبموقف العامل اتجاه عمل هو مبعد عنه . كتب (بيير موريس) يقول : « ان تستغل عاملا ، معناه انك تريد ان تحصل منه على فعالية ونتيجة ، وأن تحرمه من نصيبه في ذلك العمل (او تسمح له بنصيب ضئيل بالنسبة للعمل المنجز والشخص الذى انجزه) وأن تعامله كشيء والا تحترم حريته وأن تهزأ من شخصه والا تتعاطف معه » (24) ويعلق (نافيل) على هذا قائلا « نصل بهذا الى مفهوم شخصاني عن الاستغلال » مفهوم يصلح لانتقاد المجتمعات الصناعية المعاصرة ، سواء أكانت تحت نظام رأسمالى أو نظام يتبع اشتراكية الدولة .

وهكذا فان التحرر الحقيقى من الاستلاب يتطلب اكثر من مجرد اصلاح للبنيات ، كما يدعونا الى ذلك الثوريون في غالب الاحيان ، وهو يتطلب اكثر من مجرد خلق تواصل وتعاطف يسود المجتمع كله ، كما يزعم الاصلاحيون الليبراليون : ان ذلك التحرر يقتضى مشاركة الفرد في المشروع الجماعي ، وذلك داخل بنيات تجعل من تلك المشاركة شيئا يفوق مجرد المساهمة الصورية وبهذا ، يتضح لنا ما يعيب المفهوم الماركسي للاستلاب كي ينطبق على الاستغلال المعاصر للعمل في مجموعه . ان الاستلاب عند الماركسية ، هو في اساسه استلاب اقتصادى ثم هو ، في الدرجة

الثانية ، استلاب اجتماعي . وذلك يتخذ تبريره في عصر كان فيه العمل يجعل العامل في اتصال مباشر مع المادة . ولكن العمل في ايامنا قد دخل في سلسلة من العلاقات الاجتماعية لدرجة جعلت الاستلاب والتحرر منه ملزمين بالدخول في تلك العلاقات . وهذا ما اوضحه (فرانسوا بيرو) عندما كتب : « ان التحرر من الاستلاب يتم عن طريق موضعة لا تكون ، في اى لحظة ، ولا عن طريق اى نتيجة ، تشييئا . ففى مجتمعاتنا الغربية ، ليست الاشياء هى التي تهدد البشر ، بل اولئك الذين يعملون عن طريق موضوعات ثقافية ، يقتضي الامر اذن السماح لاكبر عدد من الناس بالحصول على الوسائل التى يقهرون عن طريقها مصيرا شكله المعاصر هو « هذا المشروع المجهول المبهم » . ان هذا المجتمع يخلق ، بدون انقطاع ، انواع الاستلاب التى يزعم القضاء عليها . وان نقيض الاستلاب هو الابداع ، الابداع الشخصى ثم الابداع الجماعى . وليس العيب فى كوننا قد انتزعنا من محيطنا الاصلى ، بل العيب هو فى الا نعرف ابداع عمل يكون خلاقا .

ان الانفصال عن الطبيعة الذى نعتقد انه انفصام مباشر لهو فى الحقيقة نتيجة لانعزالنا في مجتمع عاجز عن الابداع ، لانه عاجز عن اعطاء معنى للمجهود البشرى ، ولانه لايقر قيمة تتجاوز اشباع الحاجيات . ان ذلك الابتعاد الذى يشعر به عديد من معاصرينا ازاء الطبيعة هو اسقاط لهجرانهم المجتمعى . « فالوجود الانساني للطبيعة لا يتحقق الا عن طريق الانسان المجتمعى » كما كتب (هيبوليت) (25) فى تعليقه على (ماركس) . وبالتالى فالوجود اللا انساني للطبيعة لا يتحقق الا عن طريق الانسان المنفى عن مجتمعه . واننا لن نقضى على ذلك المنفى عن طريق هذيان الفاشية ، ولا عن طريق رخاء العيش ورغده . اننا لن نعانق الطبيعة من جديد الا عن طريق خلق مجتمع اكثر انسانية سواء فى حياته الاقتصادية والسياسية ، او فى باقى مؤسساته . ان التحرر من الاستلاب

يعني اساسا ، محو الاستغلال في مفهومه الواسع الذي يتخذه في ايامنا هاته ؛ ثم انه يعني المساهمة في عمل مشترك يسمح بخلق عالم الاخوة بين البشر ، ثم بينهم وبين الطبيعة ، تلك الطبيعة التي هي في نفس الوقت موضوع نشاطهم الخلاق ومادته ، وهي الواسطة المتينة للتحاور بينهم .

— * —

وعلى كل حال ، فربما وجب التخلي عن هذا اللفظ الذي يجتاح ادبنا . فلكثرة ما يتخذه من معان ، لم يعد يعني شيئا . وحتى في معناه الماركسي ، فقد رأينا ان لفظ استغلال يعوضه احسن تعويض. وان كان لفظ الاستلاب وسيلة ملتبسة ومبعثا للغموض والابهام في الدراسات النفسية والاجتماعية ، فهو يحتفظ لنفسه بوقع ثـوري ويعطي من يستخدمه شعورا بالامتياز . ولكن الفكر التقدمي يلزمه ان يتخلص من هذا اللفظ العتيق المدعي ، اذا ما اراد أن يبني اشتراكية تتناسب مع عصرنا . ذلك لانه لا يكفي ان تتخلص من هذا اللفظ كي نقضي على فساد الواقع : اننا لم ننته بعد من فضح ومكافحة افتقار الانسان في مجتمع الانتاج والاستهلاك . وقد وضع (ماركس) قاعدة ذهبية فيما يخص هذه النقطة : وهي ان القضاء على الاستلاب والشقاء الانساني لا يمكن ان يكون من عمل فلسفة نظرية محض ، انه عمل نضالي في نفس الوقت . وان الاستعمال السيء لهذا اللفظ لايمنع من كون مجتمعنا يخفي افقارا للانسان ، افقارا يزداد مع اغتنائه . فلنحارب اذن بؤس الانسان . ولكن ، ليس بان نحتمي وراء عبارات فضفاضة عائمة تشل الفكر الثوري وتبعده عن العمل الفعال عندما تحيد به عن التحليل الدقيق ..

---

(12) الدكتور ل. ريكي : « التحليل النفسي ، الانطلوجيا والتقدم » مقالة .

(13) فرانسوا بيرو : « الاستلاب والخلق الجماعي » .

(14) هنري لوفيفر : « ما بعد الفلسفة » . طبعة ميتوى ص 322 .

(15) في هذه المسرحية الممتازة لبيتروايس شاهد مجنوني شارونتون وهم يمثلون موت مارات بإشراف الماركيز دي ساد ، ويتحول تمثيلهم الى افراغ للكبت

(16) لاحظ بول تيبو نفس الملاحظة ،
شيئا فشيئا .

(17) فرانز فانون : معذبو الارض .

(18) هنري لوفيفر : (ما بعد الفلسفة) طبعة مينوى ص 65 .

(19) وحتى لوفيفر نفسه يقع في ذلك الخطأ ،

(20) بالنسبة للمؤمن يقوم هذا الاستلاب في توقف الانسان على الخالق . راجع فيما يخص هذه النقطة ما كتبه كالفيز في خاتمة كتابه « فكر ماركس » .

(21) كالفيز . « فكر ماركس » ،

(22) بيير نافيل : الاستلاب والاستغلال .

(23) بيير نافيل : من الاستلاب الى التمتع . مطبعة مارسيل ريفيير 1957

(24) بيير موريس النظريات الحديثة في استغلال العمل دالوز 1960

(25) جان هيبوليت المنطق والوجود المطابع الجامعية الفرنسية

كتب وردت على المجلة

- **المنفى والملكوت في شعر عبد الوهاب البياتي** ـ شوقي خميس
- **الرؤيا الابداعية في شعر البياتي** ـ عبد العزيز شرف
- **دوائر الاصفار** (شعر) ـ محمد الشعرة
- **أشياء تتحرك** (مجموعة قصص) ـ الميلودي شغموم
- **ازمة الفكر العربي** ـ مصطفى النهيري
- **في انتظار موسم الرياح (شعر)** ـ مقدي أحمد
- **قلب في العراء** (شعر) ـ غرباوي أحمد ادريس
- **شيء عن الاضطهاد والفرح** (شعر) ـ محمد بنيس
- **ضجة في الزقاق** (رواية) ـ غانم الدباغ

الدخول الى ازمنة الحزن

حسن الامرانى

ـ ١ ـ

ان اغرق فى قلب العالم ...
وأغوص باعماقـه
ان أجمع حفنة رمل من وطنى
وأحملها ريـح التجوال
معـنـــاه :
أن أزرع فى بلد التســآل
شجــره
تعـــطى ...
تعـــطى ...
تعـــطى ...
وتغير اعمار الاجيال

أن اغرس فى كبدى السكين
أن أفتح فى جسدى جرحا
وأذر على جرحى ملحا
معـنـــاه :
ان أهمس فى سمع الغيمة : يا غيمه
سيرى .. وليسقط ماؤك أنى كان
فخراجك سوف يعود الي !!
فخراجك سوف يعود الي !!

ان أهرب من مملكة الصمت

وادق على أبواب الموت
معـنـــاه :
أن أذبح أسراب العتمه
وخفافيش الظلمه
وأعيد النسر الى القمه .

ـ 2 ـ

أنـت .. أنـت !
آه أنـــت
أنت يا أعذب صوت
أنت يا أقدس صمت
آه أنـــت
فى تضاريس يديك
الملح العامل والفلاح والفأس .. وجمع الفقراء
وبحيرات العصافير ..
وخيـط الكبريـــاء .
حين القاك اله الكون فى دربى الجليدى المؤصد
صغت من جفنيك دنيا ..
لرفاقـى الشعـراء
آه يا مفتاح دنيا الشعراء .

ـ 3 ـ

حيـــران ..
بعدك يا نبض الصحراء
يا خيمتنا المنصوبة للفقراء
يا قافلة العشاق المهزومين
المصلوبين على أعمدة البغضاء
يا بئرا حفرت بأظافرنا الحمراء ...
الشمس تروى أضلاعك .. والايام
سترش مراياها المعطاء بأعتابك .

هناوى احمد الشياظمى

الاستلاب الماركسي، والاستلاب الميتافيزيقى

في الربع الاخير الذى نحياه ، من هذا القرن ، اخذ الالحاح ينصب على ظاهرة الاستلاب والاغتراب عند الانسان المعاصر ، من قبل مثقفين ينتمون بشكل عام الى اليسار . وقد ارتبط اشتداد هذا الطرق لموضوع الاستلاب بالنكسات التى عرفها الانسان طوال هذه الفترة ، وبالهزائم المختلفة التى منى بها ، ولاسيما على الصعيد السياسي والذاتي ، اى الخصوصي ، وفشل هذا الانسان (ويتعلق الامر بانسان حي ، ملموس ، محدد ؛ لا بانسان مجرد ، ميتافيزيقي) انسان البلدان الرأسمالية المتصنعة (أمريكا ، فرنسا ، انكلترا ، المانيا الغربية ، اليابان ..) وحتى البلدان المتخلفة السائرة فى الطريق الرأسمالى ، او التى اخذت تتجنب هذا الطريق بعد ادراكها لاخطاره ، وأخذت تظهر ميلها الى الطريق الاشتراكي ، فشل هذا الانسان فى تحقيق احلامه ووتطلعاته .

والاستلاب ، فى هذا الاطار اذن ، هو استلاب جاء افرازا طبيعيا لحالة اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية معينة ، لم يكن منها مفر والحالة هذه أن الاسس التى يقوم عليها كيان هـــذه المجتمعات المستلبة (لامها مفتوحة) والمستلبة (لامها مكسورة) اسس منخورة ومشققة لا تحتاج الى ترميم او ترقيع او اسناد ، وانما

بصدد مقالة « ماهية الانسان فى التحليل الماركسى للاستلاب » المنشورة فى [illegible] « اقلام » [illegible] (2 — 3) 1972

تتعجل نسفا كليا ، واعادة البناء من جديد ، بناء مخطط وسليم تشارك فيه كل « الايادي التي لا تخسر الا قيودها في المعركة »(1)، وعندها سوف لا يكون مكان للاستلاب الكلاسيكي ، ولا للاستلاب المعاصر ، اللذين عرفهما ـ خصوصا ـ القرنان 9 او 20 .

وانه لمن باب الموضة ، موضة التفلسف ، أن يحلو لبعض طلاب الفلسفة ، أو المتمرنين على التفلسف ، أن يضربوا ـ بمناسبة أو بدون مناسبة ـ على هذا الوتر الذي لا يمكن فصله بأي حال من الاحوال عن منظومة الاوتار التي في القيثار . وفي نظري ان الاستشهاد بماركس وانكلز او لينين ، بهذا الصدد ، لا يمكن أن يكون دائما اشارة خضراء للمرور . ففي غياب النصوص الادبية الماركسية اللينينية من ايدي كثير من قراء العربيــة ، وحتــى الفرنسية ، ببلادنا (لاسباب كلنا نعرفها) يبقى من الصعوبة القصوى معرفة وجهة النظر الماركسية الاصلية في الاستلاب بكيفية مفصلة وغير مفقرة (ضم الميم ، وفتح الفاء والقاف المشددة) . ذلك أن التركيز على الاستلاب فلسفيا لم يكن مطلقا هو مبتغى ماركس .

حقا ان كارل ماركس تكلم عن الاستلاب في مقال مركز ، او ضمن مؤلفاته الفلسفية والاقتصادية لدى تحليله للعمل ولقوة العمل ، ورأس المال ، وفائض القيمة ، وحدد طبيعة هذا الاستلاب الذي يحسه الفرد العامل اثناء دورة الانتاج في الزمــان والمكان المحددين ، وليس بكيفية اطلاقية . فهو عطاء قسري يتواجد داخل كينونة اقتصادية وسياسية ما . ولم يدع ماركس حتى عندما كان هيغليا ان الانسان قد كان منذ الازل بدون ماهية ، حتى يبقى بدونها ابد الدهر ! والا لكانت الماركسيــة اليــوم عقــب قيــام المنظومة الاشتراكية المشيدة لانسان جديد ، مجرد سفسطة فلسفية كباقي الفلسفات الاخرى المثالية . ولانها ليست كذلك ، ولانها ربطت سايكولوجية الانسان بالحيز الذي يشغله اقتصاديا في المجتمع ، ذلك الحيز الذي يقرر بالضرورة استلابه واغترابه ، أو استقراره

واقترابه من الآخرين ، وانسجامه مع محيطه فانها ظلت عظيمة واحرزت على كل هذه الشعبية التى لم تحظ بها فلسفة او منهج ما فى اية مرحلة من التاريخ .

ومن الصعب الا تندرج مقالة الكاتب عبد الرزاق الدواى المنشورة فى العدد السابق ، المزدوج ، من « اقلام » بعنـــوان : « ماهية الانسان فى التحليل الماركسى للاستلاب » ضمن السياق الذى وقع الحديث عنه أعلاه .

« ان التاريخ كله لم يكن سوى صراع بين الطبقات » .. تلك فقرة أوردتها المقالة المذكورة (ص 68 ، فقرة 3) معراة من القوسين ، الشيء الذى يخلق انطباعا مغشوشا لدى بعض القراء بأن الجملة هى للكاتب وليست لكارل ماركس الذى استهل بها أول فصل من « البيان الشيوعى » (البورجوازيون والبروليتاريـون) ، حيـــث يقول ماركس بالحرف : « ان تاريخ كل مجتمع الى يومنا هذا لم يكن سوى تاريخ صراع بين الطبقات » .

ولم يكن مفيدا الى هذا الحد أن أشير الى هذه النقطة لو أن الكاتب أوردها فى حالة تمركسها النهائى . فكما يعلم القراء أن ماركس سها عن تثبيت استثناء تاريخى للصراع الطبقى ، تلك المهمة التى قام بها نيابة عنه رفيقه فريدريك انكلز ، فاستدرك قائلا : (منذ انحلال الملكية الابتدائية المشاعية) . وهذا الاستدراك ضرورى جدا ، والاشارة اليه فى مقالة « اقلام » لازمة ايضا للدقة التاريخية (من جانب انكلز) وللامانة الادبية فى النقل (من جانب الكاتب المحترم عبد الرزاق الدواى) من جهة ، ومن جهة اخرى من اجل تفويت ودحض الآراء الاقطاعية والبورجوازية والطوباوية القائلة ان الصراع الطبقى ، وبالتالى وجود الطبقات ، هما مسالة ازلية وأبدية بالنسبة للبشرية جمعاء ، وكل مجتمع على حدة ، ومن ثم

فلا داعي الى النضال من اجل القضاء على سيطرة طبقة على الاخرى ، كل ذلك بغرض تمرير مخططاتهم الاستغلالية والعدوانية لابقاء « ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ، أي الفقير حيث هو ، والغني حيث هو . فالامر بالنسبة اليهم خاضع للقدرية وللماورائيات .

لقد اخلص انكلز ، الرجل العظيم الذي لم يتركه التاريخ تحت الظل رغم تواضعه الاسطوري ، بتأكيده على الاستثناء ليطلق العنان للفكر الانساني كي يماشي التطور التاريخي ، فيومن بأن مصير الطبقات الى زوال ، ويعمل من اجل التعجيل بذلك ، طالما أن ظهورها لم يكن الا في فترة تاريخية معينة لدى تفسخ احد المجتمعات القديمة . واننا اليوم لنجد هذا التنبؤ العلمي ، الخفي في مستدرك انكلز للصراع الطبقي ، مجسدا في العلاقات الجديدة التي جاء بها النظام الاشتراكي الى الطبقات . ففي البلدان الاشتراكية ، عندما يستمر تقارب الطبقات بعضها بعضا ، وذوبانها ـ تدريجيا ـ كتلة واحدة في المجتمع الاشتراكي المتجانس ، قضى تماما على الصراع الطبقي وعلى جذوره وخلفياته .

في بلد ، كالمغرب ، نعاني فيه جميعا كبتا عاما مركزا ، يراد من كل حملة الاقلام الشرفاء أن يجذروا وعي قرائهم وشعبهم عبر التحاليل العلمية الدقيقة والرصينة الهادفة والهادئة والمبسطة الواضحة ، لان الشعب ـ حتى لا نكذب على انفسنا ـ لا يقرأ مقالة « ماهية الانسان في التحليل الماركسي للاستلاب » ، ولا مقالي هذا . وتلك لعمري مهمة صعبة حقا لان الاحساس بها لايتعدى مجموعة قليلة من المثقفين الشرفاء كيفما كانت وجهات نظرهم وخلافاتهم الشكلية .

وفي انتظار أن يعترف للفرد المغربي بحريته اعترافا فعليا ، ولسائر الجماهير الشعبية بممارسة حقوقها السياسية والثقافية

حتى لا تبقى السياسة « اسطورة حبيسة المجالس والمكاتب والهيئات والتجمعات الفوقية ـ كما يقول الصديق عبد القادر الشاوى فى نفس العدد ، أدب التلاميذ ص 74ـ » ، وحتى لا تبقى الثقافة فرصا منحصر قطفها ـ بعسر طبعا لدى الاكثرية ـ على كمشة من الناس تعد بالعشرات ، وقد تعد بالمئات في حالة التفاؤل ، اقول ، ختاما ، ان الاشتراكية العلمية لا تصادر الملكيات الفردية للناس ، وليست ضدها بشكل عام ، وانما تصادر ملكية وسائل الانتاج والملكيات الاخرى التى تاتى بربح يتصاعد عبر استغلال واستلاب المنتجين (2) .

---

(1) كارل ماركس

(2) لذا فان الغاء الملكية الفردية يعد الشرط الضرورى والاساسى لكى يجد الانسان الوجود الحقيقى لاول مرة ـ ص 70 من مقالة السيد عبد الرزاق الدواى ـ

توقيعات بالبصمات المحترقة

محمد بنطلحة

ـ 1 ـ

كوجه مدينة حضرت مراسيم الاغارة والسقوط
توهج في دمي عنب الحريق .
انا في الدواخل ترتخي لهبا ، ونار في متاهات الطريق ،
وليس الماء في الجرة ؟
تبعثرت الحقائب في الملاجىء والاغاني كن في شفتي ..
جراحا من غدير الصبر تستقي ؛ وكنت خلية حبلى ..
وقافلة من التذكار .

وبين الخوف والجرأة
مشيت على حوافي الصمت والضوضاء ؛ لافتتي مرافىء في الخليج..
تغالب الفرق القريب وقهقهات الريح ملء بواخر ..
السفر المعارة .

•

فيا قدم الجراح تطاولي ، سيري على أرض الجسارة .
أتكبر حول بيت الاهل عوسجة التناسي ؟
ولا تعتاد عاصفة الاثارة
على ترديد فاتحة الخروج من الذهول ؟ ..
خرائط البلد المصاب تحولت نقشا على سبورة الاطفال.
تراجعت المسافة مرتين ، وعادت الالقاب عالقة بكرسي الامارة ..
تحرس الايوان .

وكانت في حصار مدينتي تعرى البيوت ؛ وتصبح الاشجار نافرة الغصون ..

سدى يمر البرق . اين تكون خاتمة النزوح السابعة ؟
ـ أزقة وجهك المفرورق اختلطت بأغنية الارامل ؛ والجياع تشردوا..

في دمعتين تراءتا في العين

ـ لان السيف لم يكسر زجاج البين .

ـ 2 ـ

شراييني تجف على كتابات الضريح . متى يكون البعث ؟ أمس سمعـت ..

جدرانا تئن وضجة في بابل السفلى .

أكانت ضجة الميلاد ؟ لا ادرى . سواى يقول :

(كانت ضجة الموت)

سرابي جبين الارض يلتقط الاحبة فيه رمل التيه . تلك هوامش الطرقات ..

ساخنة ؛ وتلك وفود من خسروا مناديل اللقاء تقايض ..

الصحراء بالاحزان .

فيا صفصافة البستان
أريحى كل وجه في ممرات الكآبة عابر ؛ والتفسلى بندى النخيل اصابعي اليسرى ، فما اليمنى بقادرة على التوقيع .

ـ 3 ـ

كأسيجة الحدائق صار تطوافي أعلق في مشاجبه حنيني .
واغزل جرحي الصيفى سنبلة تميل على جبيني .
وخلف الاسيجة
تدلت راحتي فشممت رائحة الرصاص تقيم في وجه المدينة مأتما..

حملته ذاكرة العجائز ألف عام ؛ والبنون تناقلوه رواية ،
خبـــرا :
(منازلنا المحصنة ارتمت في جرحها الطيني ..
أشعلت السطوح منارة أو شعلة من نار .)
وغادرني النعاس المرمري ؛ ومر في وجهي الصدى :
(هل تولد الازهـار
من النيران حين يلامس القمر الحزين سقيفة من تربة ..
هل يعشق الحجرا ؟)

ـ 4 ـ

أما نفذت اليك أشعة الاضواء يا وجهي ؟
حسبتك ذقت فاكهة المسرة حين اشرقت البشارة في عمود الكهرباء
وفي تعابير التسول والشبابيك الشقية ..
والعيون الساهرة .
ولكني أراقب فيك معجزة تزول . أما حلوث قوافل الصحراء قبل الآن ؟
كأنك شخت . هب اذن . ضفيرة هذه الريح اللعوب تهيء التابوت..
قل : (لاتفعل) لتمد ذاتك في ذوات الآخرين .

ـ 5 ـ

عصا التسيار تضرب في الحواضر والبوادي
وعطر من قوارير النساء المتوفات اذا شممت الريح يغريني .
فالمن عطرهن . أقول : (مانسبي ؟) تجيب يمامة ثكلى (من الطين)
وتستلقي شراييني
على جسدي المفتت بين أسلحة الجنود وبين آخر ما قرأت ..
على قبور الاقرباء . فآه يا وطني
احسك في عيوني
نفايات من البارود تصعد في فوانيس البيوت وفي دواويني .

فـــاس : محمد بنطلحـــة

المراة و الوردة : الواقع، الايديولوجية

ابرهيم الخطيب

« سوز . احبك . وأحب الدانمارك . وأنتظر أن تأتي لتنقذيني » (ص 94)

(1) ليست (المرأة والوردة) سيرة ذاتية ، أى نصا تتحكم فيه خلفيات الكتابة الانطولوجية . ولكن (زفزاف) ، مع ذلك ، يكتب عن نفسه ، وبالتالى ، عن واقع محدد تحت شروط معطاة (علاقات الانتاج فى المغرب ، سنة 1970) . فهو يريد ، عن طريق الكتابة ، أن ينشىء بينه وبين هذا الواقع علاقة تناقض مسبقة : أن ينفى نفسه فى النص («مكان» الكتابة) ، وفى ذات الوقت يخلق « عزلته الخاصة » عن واقع لايراه مقبولا . ان آلية هذا التصور تفترض غياب تحليل من النحو التالى : 1) هناك الكتابة ، كعمل على «اللغة» والنوع الادبى و 2) هناك ، فى مكان آخر ، هذا « الواقع » الذى تتخلله فراغات ، تكبت ، عمليا ، نوع علاقات الانتاج السائدة ، و 3) هناك أخيرا نوع الايديولوجية التى تحتوى « الواقع » لكى تختصره فيما بعد فى شكل « انطباع » لا يمكن اخضاعه نوعيا لاى تحليل . وافتراض من هذا النوع ، يعنى أن الكتابة تصبح عملا وهميا على مادة متخيلة ؛ بعبارة أخرى فان ما يهم هو « ابداع » اوضاع ذهنية مختلفة لكى يكون (الكاتب) « شاهدا » على « ما يحدث فى الخارج » ، وفى الواقع ، شاهدا مستلبا .

ماذا يقول (زفزاف) اذن ؟
بعبارة أخرى ، ماذا « يحدث » فى لغة (زفزاف) ؟

(2) بنية (المرأة والوردة) : شخص (1) يذهب ، تحت نصيحة

(= قمع) شخص (2) ، ليشاهد الغرب في « مستعمرة » سياحية (مدينة « غير اسبانية » في اسبانيا ، مدينة « الآخر » في مكان ليس له بالاصالة) فيناقش مسألة العيب ويمارس الجنس ، ويتأمل في وضعيته الخاصة ، ويحلم أن يصبح صاحب (بار) ، ومهربا للحشيش : ان زفزاف ، كما قلت ، ينفي نفسه طوعا في النص ، انه يريد ان يفكر ، ويتخيل وهو « هناك » في « مكان آخر » ، ولهذا فان التعبير عن رؤية (المرأة والوردة) لايتأتى الا بواسطة « استبدال الامكنة » . فالاشياء ، بصفة عامة ، ينظر اليها من « مكان آخر » (الغرب) ، وهذا يعني أننا نستطيع أن نقول أى شيء ومن أى « مكان » شئنا . ان العملية ، هنا ، تشبه السحب الميكانيكي للافكار من اجل أن تصبح نظاما من المطلقات : أن من أجل أن نكون « خارج مكانها » الطبيعي . والواقع أن الرحلة (استبدال « مكان » الكتابة) في (المرأة والوردة) ، كتجربة ذهنية ، ترتفع شيئا فشيئا الى مستوى الاختيار الايديولوجي لزاوية الرؤية : فنحن بامكاننا هنا أن نتحدث عن شيء اسمه « سياسة الرحلة » ونكون اذ ذاك نعني هذا الانتقال من مكان الى « مكان آخر » ، من مكان الانا الى مكان الآخر : من منطقة الواقع الى منطقة الوهم ، فمنطقة الآخر ، بالنسبة لنا ، هي دائما ، « الوهم » (وأنا استعمل الايديولوجية بالمعنى الذى يعطيه التوسير لها : ما هو نقيض التصور النقدى للواقع ، نقيض الواقع ــ الواقع) . وتبعا لذلك تحصل بعض المترتبات على هذا الوضع : فالتعرف على الذات لا يمكن ان يتم الا بواسطة الآخر، اى أن (أ ــ لا يمكن أن يتعرف على ــ ج ــ الا بواسطة ــ ب) فواسطة الآخر ليست عنصرا اضافيا ، تتغير قيمته بتغير مكانه ، بل هى الاساس الفعلي لعملية التعرف . وهكذا فالتعرف لا يمكن ان يتحقق في طرفين ، بل من خلال علاقة ايديولوجية بين الاطراف الثلاثة . اما الخاصية الاخرى للتعرف (تعرف « الذات » على « واقعها») فهى انه لا يتم الا من خلال المقارنة ، اى 1) بابراز تحدى (الآخر) كمقولة سابقة و 2) بالتصدى له من داخل ايديولوجية . فالآخر

(الغرب) هو الذى يفترض شكل التحدى وعمقه (ايديولوجية « التقدم ») ولكنه ايضا يضع حدود الممكن بالنسبة لها . ولهذا فالكتابة لا تعدو أن تكون « تغييرا لمكان » هذه الايديولوجية ، الذى يقتضى بدوره اعادة صياغة للشكل ، خلال تنقل الاطراف الاخرى فى حركة تضعيف ، وتكرار ، تنتهى ، أو تبدأ ، بتبنى منظومة افكار « التقدم » ، كمقياس مسلم به . ان هذا التحليل قد يبدو متعارضا مع ما تنتهى اليه بنية الرواية ككل ، من تحقق العودة باعتبارها موقفا جديدا يضع زاوية الرؤية ، من مكان آخر ، موضع تساؤل . غير اننا نتمكن من اكتشاف علاقة العودة ، بالرحلة ، والتعرف ، والمقارنة (وهى الزوايا الثلاث الاساسية لهذه البنية) ، كاستمرار، افقى ، اذا لاحظنا ما يلى :

1) ان المدينة التى « تحدث » فيها العودة ، مدينة هجينة (تتداخل فيها اكثر من بنية دلالية : تخلف / « تقدم » ، أصالة/ « زيف » (كدلالة على حضور « الواقع الآخر» الخ) .

2) أن ما « يحدث » فيها (الشروع فى عملية التهريب) هو استمرار لما « حدث » (انتقال الفعل من مكان الى مكان) ولكنه ، بالدرجة الاولى ، تعبير عن « حاجة الآخر » (« مكان » المخدر بالنسبة للغرب الرأسمالى ، و «مكانه» بالنسبة لنا) .

3) أن الشخصيات لا تتغير ، اذ أنها تحتفظ بمكانها داخل النص ، كما تحتفظ بوجودها الانثروبولوجى (علاقتها بواقعها الخاص) ، هذا بالاضافة الى أن غيابها المفاجىء يوشك أن يضع العودة ، كلها ، فى مستوى « الحلم » .

ولكن ، ماذا ينتج ، ايديولوجيا ، عن هذا التصور ؟

بامكاننا ، الآن ، أن نلاحظ الدلالات الآتية : أ) اعتبار (الغرب) ، من خلال بعض اشكال السلوك ، هوية بشرية واحدة ، أى « كلا » متجانسا ، ويتمثل تجانسه بوضوح ، كذلك ، فى

ايديولوجية (التقدم) . وهنا يمكن أن ننتبه أيضا الى ب) غياب تحليل من النوع الطبقى ، فالفهم العام (بالمعنى السيء) للأنا يقنن نفسه فى فهم سطحى ، ، غير واقعى ، تحريفى (لاسباب طبقية ، سنذكرها فيما بعد) لهوية الآخر . ولهذا فان النص يكبت كل وضع طبقى للاشخاص فى حين يعلن هويتهم الاتينة دون تردد ، وهذا يعنى ج) أن النص انما هو كتابة عن «وهم» (الغرب ـ الواحد) يكبث واقعا (الغرب ـ التعدد) أى كتابة شبح عن « شبح » آخر ، وهذا هو السبب فى آن الاشياء تبرز فى البداية متناقضة ، غير أن هذا سرعان ما يضع نفسه ، من أعلا ، كانسجام طبيعي : هناك صورتان تتداخلان ، مرآتان تعكس احداهما « فراغ » الاخرى ولكنه فراغ ينتج ذاته فى اشكال أخرى من خلال د) وضع تضليلى للعلاقة ما بين الداخل/الخارج ، لا كدلالتين ، بل كمدلولين يوجدان فى « حالة تناقض نحو التشابه » . فاذا كنا لا نرفض وجود علاقة ايديولوجية ما بين الداخل والخارج (باعتبار ميزان القوة فى علاقات الانتاج : شراسة الرأسمال الاستعمارى ، فى مقابل ضعف العالم الثالث) فاننا نعترف ، بالتتابع ، أن كلا من الطرفين يشكل بنية فى ذاته ، وبهذا فليس بامكاننا أن نفهم العلاقة ما بين الطرفين ما لم نفهم ايديولوجية كل بنية على حدة : بلغة أخرى ، فان (الغرب) بالنسبة لنا ليس مكانا « يشبه » نا ، كما أنه لا يمكن أن يكون « افضل » منا ، ما دامت بنيته التاريخية تختلف ، نوعيا ، ومن زوايا متعددة عن بنيتنا . ه) وينتج عن ذلك أن العلاقة بين الذات والموضوع (الغرب) تفترض انقطاعا فى ايديولوجية هذه العلاقة ، اذ أنها ، عمليا ، تفترض غياب الذات ، أى الخضوع للآخر . وبما أن هذا (الآخر) هو ، فى الواقع ، نتيجة 1) ايديولوجية الموضوع (رؤية « الموضوع » لنفسه) 2) بالاضافة الى نوعية علاقة الذات به (سلطة الاب) فان الدخول فى منطقة الغرب يعنى بوضوح موت الاب (ص 93) اى ظهور قوة قانون جديد اكثر قدرة على الاستيعاب والاستهلاك فى حقله الايديولوجي (الجنس ،

« الحرية » ، المخدر ، الخ) . وهكذا تكف الذات عن أن تكون موضوعا للاغراء ، لكي تصبح موضوعا للتجارة الاستعمارية في شكلها الجديد الذي يناسب العصر الامبريالي : ان (المرأة والوردة) هي « نتاج » (بالمعنى الماركسي) المعضلة الاستعمارية ، وأزمة الثورة في دول العالم الثالث في ذات الوقت . ولكنها ، قبل كل شيء ، نتاج ايديولوجية الطبقة المتوسطة في بلادنا ، في أواخر الستينات، وهذا ما سنحاول أن نبينه بعد قليل .

3) صورة الغرب : (أ) شخص (2) : لاول وهلة ، ينبغي أن نعتقد أن الغرب « عالم مسحور ورائع » فهو عالم المغامرة والتغير وعدم الاستقرار والحرية و « اللامكان » . ان الاشياء هناك ، ليس لها أمكنة (فالمكان يعني ، أيضا ، التوقف) : ان البشر ، كافراد ، هم فقط الذين يتحركون ، ويتنقلون ، ويغيرون ذواتهم باستمرار الى اشكال أخرى . فليس « هنالك » شيء « موضوعي » ، لانك تستطيع « الحصول على ورقة خبير في السوق الاوربية المشتركة ، وبذلك تستطيع ان تتجول في أوربا كلها مع ما تشاء من الجواهر والمخدرات » (ص 10) . فما يهم ، في الواقع ، هو الا تبقى في « مكان » واحد : أي الا يكون لك مكان . غير ان الغرب ، هو ايضا عالم « البطالة » : فالاشياء تحدث بسهولة ، وهي لذلك لا تحتاج الى ذكاء ، « اربع سنوات لم اشتغل . كنت آكل واشرب وأرتدي أفخر الثياب وأنكح اجمل النساء » (ص 11) ، لماذا ؟ لانها « تقع » في مكان آخر لا صلة له بمكاننا : فهناك ، ينبغي أن نتخلص من كل ما يربطنا بأمكنتنا السابقة لانها مشوهة ، متخلفة ، جامدة ، انها لا تقبل « التغير » بل تكرر نفسها فوق زمن ابدي في انماط متشابهة ينتج بعضها بعضا (القبر ـ ص 12) ولكنها ، قبل كل شيء ، « تزيف » نفسها ، أي تتغير تغيرا وهميا الى الخارج في حين تظل كما هي في الداخل : ان عالم المغامرة والتبدل هو الحل .

اضافة الى ما سبق ، يمكن أن نقدم التحليلات التالية :

1) ان الرغبة فى « التغير » (كما تبدو ، هنا) هى انعكاس للوضع المهزوز المهدد بالهبوط الى الدرك الاجتماعى الادنى الذى يشكل « وعى » الطبقة المتوسطة ، بصفة عامة ، وايضا نوعية ممارساتها السلبية والايجابية .

2) ان « الحوار » مع الغرب ، على مستوى اقتصاد النص ، حوار قمعى : هناك الغرب ، أولا ، وحوله هالة من ايديولوجيته : الحرية ، المرأة ، المغامرة (حالات النجاح والفشل الخ) . وهناك الذات ، ثانيا ، كصورة « بدائية » فقدت حضورها فى العصر : القمع ، الكبت ، الموت فى طرقات المدينة كمصير مخيف .

3) غير أن هذا الحوار القمعى ، يظل « وهميا » وفى حالة النفى ما لم يكن محوره الاساسى هو العمل النقدى على الواقع : اى الوضع التاريخى لمكان (الانا) ومكان (الآخر) وتخليصهما من ايديولوجيتهما فى اطار تعرية طبقية على المستوى العالمى (الغرب الرأسمالى/العالم الثالث) .

صورة الغرب : (ب) شخص (1) : يقع تحديد صورة الغرب ، هنا ، من موقع الكآبة (باعتبارها استلابا من نوع ما) : فهو لم يعد عالما مسحورا ورائعا على كل حال . اننا نستطيع ان نفكر الآن فى وجود قطيعة ايديولوجية ما بين النص (أ) والنص (ب) : ان الغرب، فى النص الاول ، هو « العلم » . فالافعال كانت تحدث بمفردها ، هناك عالم غير متوقف ولكنه يتحرك بسهولة غير موضوعية ، ولهذا تصبح « الرحلة » نفسها ضربا من « الحلم » (ثم وجدت نفسى اجتاز الحدود ورجال الحدود ص 13) ولكنه « الحلم » الذى يعجز، بصورة مزدوجة ، عن تخليص نفسه من الايديولوجية الاستعمارية، والاستعمارية الجديدة ، تبعا لعجزه الطبقى عن فهم الآخر فهما نقديا، داخل التاريخ ، («أوروبا هى التى اخرجت الرجال وستخرجهم »

الخ ص 12) هذا العجز الذى يكرر نفسه فى عجز آخر عن كل تحليل للشروط الذاتية .

ان النص (ب) يتجزأ بدوره الى نصين : احدهما يضع نفسه ك « شبح » للآخر ، كمصير له ، ولكن كلاهما لايستبدل نفسه ، فهناك حد فاصل بينهما ، غير أن علاقتهما ، ايديولوجيا ، لاتتعدى حد التعارض الذى يعبر ، كتضعيف ، عن وجهة نظر معينة ، غير نقدية ، هى وجهة نظر النص كله . أول هذين النصين يقدم كدلالة على « الحضور » (حضور الفعل) : هناك « فرد واحد » (الكاتب) ينظر الى الاشياء من أعلا ، ولكنه يسيرها ، فى حين يبقى وجود الآخرين وجودا انثروبولوجيا مرهونا به : فغياب (الكاتب) ، فى اقتصاد النص ، هو نهاية العالم . ولهذا فان « ما يحدث » هو ، ليس فى الواقع ، سوى ما يهم (الكاتب) « أن يحدث » . أما النص الثانى من النص (ب) فيقدم كدلالة على « نص بدائى » (حضـــور الذاكرة) : وبنية هذا النص بسيطة الى أقصى حد (خلق بدائل عارضة للفعل) ولكنها تتعقد شيئا فشيئا عندما يكون الامر متعلقا بتحديد « اختيارات » يراد طرحها ، خطأ ، كتحليل (أنظر : المحاكمة ص 73 ـ 83) . وفى الغالب فان النصين معا لا ينشئان فيما بينهما علاقة ديالكتيكية ، أى علاقة تداخل ونفى ، نظرا لان الهدف الايديولوجى من الرواية ككل ـ كنص أيضا ـ هو تقديم « اشباح » (الكاتب) من خلال الكتابة ، وليس تحويل الكتابة ذاتها الى اداة نقض لتحطيم ايديولوجية النص قبل كل شىء ، اى عبر اثـــارة الخلخلة فى « التصور » الذى يبنى عليه . (اعتبار ما يراه الكاتب هو « الواقع » أو « الرؤية ») .

ان صورة الغرب ، مرة أخر ى ، يقع تحديدها من موقــــع الكتابة : فموت الاب (ص 93) هو نهاية الانا بصورة ما ، نهاية الذاكرة ، ولكنه يعنى أيضا الدخول فى علاقات من نوع جديد ، وبافق مختلف : فما هو الغرب هنا ؟

أ) ان الغرب يقدم فى حالة سكون ، أى فى صــورة نقـيض للحلم . ومع أن التناقض موجود ، الا أنه يعكس نفس التـطـرف العشوائى للدلالة (الحركة/السكون) الذى يستثنى التداخل ويكبت النفى . ان الاشياء تحدث ببطء ، وحين تتحرك فهى لا تتحرك لهدف ما . ان غياب الهدف ، هنا ، هو شىء اساسى ، ففى هذا الوضع الساكن تستبدل الذات مكانها ، من الداخل الى الخارج ، فتصبح « موضوعا » لما يحدث ، أى انها تأخذ فى « استهلاك » نفسها (بالمعنى الاقتصادى) ، ولهذا فإن الغرب لايعدو أن يكون « مبررا مكانيا » لهذا الانتقال ، واحيانا « مبررا زمانيا » (اغتصاب بربارا ص 29) او مجرد « وسيط » .

ب) تطرح المرأة ــ الجنس ، كنقيض للمرأة ــ الكبث ، فى منطقة الانا . وهذا يبدو متعارضا مع النص الاول الذى تقدم المرأة الغربية فيه كـ « موضوع للاغتصاب » ، ان المرأة ــ الجنس هى التحقق الفعلى للحرية ، هى اداة العودة المنشودة الى الطبيعة ، فهى اذن لا تعدو أن تكون « قيمة تبادل » : هناك ، فى الغرب ، يقع استيعاب المرأة داخل الايديولوجية البورنوغرافية باعتبارهـــا سلعة للاستهلاك ، تماما مثلما يقع استغلال « العودة الى الطبيعة » من طرف اجهزة الدولة المتسلطة ، فى وضع معين ، لكبث الصراع الطبقى ، وتصعيد بدائل وهمية لازمة الحضارة ، وفى كلتا الحالتين يحدث تحويل التمرد او الاحتجاج ودمجهما فى الروتين اليومــى الابتزاز الرأسمالى الاحتكارى . وفى مقابل ذلك ، تبرز المرأة ــ الكبث ، كتغيير عن حالة ارهاب « اخلاقية » محورها العلاقة ما بين الداخل والخارج : « الوضع البدائى » ، و « حالة الاخصاء » .

ج) ان « الفعل » الذى يحدث هو ، فى الواقع ، من أجـــل « اللافعل » ، أى من اجل العبور الى منطقة « الحلم » (المخدر) . منطقة « التحول » الوهمية . غير أن الفعل ، هنا ، يطرح كدلالة ايديولوجية (فى اطار التعارض الليبرالى ما بين النجاح والفشل)

فالفعل الوحيد الممكن هو الحلم ــ « السلعة » : أي العمل داخل الوهم ، تحت سلطة السوق ، لفائدة استلاب من النوع الذاتي .

هذه الصورة لا تقول كل شيء ، بالضبط : انها « تخفي » ككل نص ، ما هو « أساسي » . فماذا يمكن أن نلاحظ ، الآن ؟

1) ان الغرب ، كوجود تاريخي وسياسي معين ، هو ليس سوى « صورة » الذات عن نفسها ، أو ، بالضبط ، هو ايديولوجية الذات وحين نقول هذا فاننا نعني ، بالنسبة للذات ، « ما ينبغي أن يكون عليه العالم » .

2) ان المرأة لا تقدم الا كموضوع جنسي ، أو ، من جانب آخر، كبديل للكبت ، وهكذا فان العلاقات المرأة ــ الرجل ، تظل جزئية، بحيث لا توضع في اطار تصور عام .

3) ان الدخول في منطقة « الحلم » هو ، ايضا ، محاولة لرفض الوعي . فما دام الكائن الطبقي ، هنا ، لا موقف له ، فان اول ما ينبغي عمله هو اعتبار العالم غير قابل للتفكير ، اى غير قابل لان يكون موضوعا للتناقض والنفي .

4) بالنسبة للصراع الطبقي في بلادنا ، سنة 1970 ، ما هو مكان (المرأة والوردة) ؟

ان جانبا هاما من التحليل السابق يعتمد ، بصورة أساسية ، على تحديد معطيات الاجابة ، الآن : ففي الوقت الذي يشتد فيه التناقض الفعلي ، خلال النضالات اليومية ، ما بين بورجوازية الدولة والبرجوازية « الوطنية » من جهة (رغم تناقضهما الثانوي الذي يبدو واضحا في عدة ممارسات) ، والبرجوازية الصغيرة (المنقسمة، عمليا ، على نفسها) والطبقات الكادحة ، من جهة أخرى ، فان ما يظهر جليا ، أيضا ، هو أن هذا التناقض ، على المستوى الايديولوجي يظل بعيد الافق . اننا سوف نركز حديثنا الآن على الطبقة المتوسطة،

حتى نكتشف دلالات هذا الوضع : ان التجربة السياسية لهذه الطبقة ظلت تطرح عدة تساؤلات ، ولكن هذه التساؤلات كانت تضع جدوى التجربة ، عامة ، موضع شك . ففشل الطبقة الوسطى في تسلم السلطة سنة 1960 ، وقبل حالة الاستثناء سنة 1965 ، وبعدها ، كان يعني ، بوضوح ، أنه لم يعد في امكان هذه الطبقة ، حسب ظروفها الحالية ، تحقيق شيء ، ما دامت قد عجزت عمليا عن تفجير التناقض الايديولوجي وبالتالي احداث قطيعة بين اختياراتها واختيارات السلطة . ان حالة الارهاب ، غير المعلنة ، التي تلت اقرار حالة الاستثناء ، قد خلقت جوا من الغموض بلغ حده الاقصى سنة 1970 ، وبالضبط عندما ظهر تحرك سياسي واسع النطاق من جانب السلطة لاحتواء « المعارضة » (الخائرة عمليا) بعد أن اتضحت ميولاتها الانحرافية التي تعبر عن وضعها اليائس من احداث اي تغير جذري داخل الاطار الحالي ، من جهة ، وعن حالة الذعر من تصاعد قوى وطنية جديدة ذات اختيارات اكثر ثورية ، من جهة أخرى . وهكذا بدأت ، على المستوى الايديولوجي ، علامات « الوعي الشقي » في الظهور ، في شكل اهتمامات ذاتية لتحقيق آلية الانتكاس في الرؤية ، والنكوص ، في الممارسة : « تشويه » الخارج ، للاقتناع بعدم جدوى الفعل في الداخل . فالوضع ينبغي ان يكون غير قابل للتفسير ، حتى يمكن ان نرفضه، وفيما بعد نخلق بدائل « لتجاوزه » . هذه «الايديولوجية» ، ماذا تفترض ؟ ان تحول واقع الذات (« واقع » الكاتب) الى مجموعة من « الاشباح » ، تعكس رؤية مبشرة لوضع معقد ولكنه متحرك حتميا، يقتضي ايجاد مخرج آخر يكون اكثر قدرة على الاستيعاب ، والتمزيق ، والتقويض : واقع ينظر اليه من « خارج » كصورة لما ينبغي ان يكون عليه الداخل (داخل الذات) ، مخرج يتحقق فيه التداخل الوهمي ما بين وضعيتين توجدان ، تاريخيا ، في حالة تناقض : فالغرب ، يصبح ، دون شك ، بالنظر الى اجهزته الايديولوجية التي تنقل « صورته عن نفسه » وليس واقع هذه

الصورة ، هو المهيأ ـ ليكون ايضا « صورته عن نفسه » وليس واقع هذه الصورة ، هو المهيأ . ليكون أيضا « صورة الذات عن نفسها » اى « ما ينبغي أن تكون عليه الذات » . غير أن هذه الاشياء لا تحدث دون وضع ما ، فتحول بورجوازية الدولة الى وكيل للسوق الاحتكارية العالمية ، بالاضافة الى نوعية ممارساتها في مستوى اللغة ، والارتباطات الايديو ثقافية (اختلاف شعور بالتواجد فى مكان مغاير) قد ادى الى نتيجتين : 1) اعتبار « تقدم » الغرب كأفق بالنسبة إلنا و 2) أن هذا « التقدم » لا يمكن أن يصبح أمرا واقعا الا فى اطار الوضع الحالى ، اى فى اطار الخضوع عمليا وايديولوجيا للغرب الحقيقي ، لـ « مكانه الآخر » ، الغرب الاستعمارى ، هذا الخضوع يكبت استسلاما لسلطة قمعية ، تقبع فى الداخل ، ولكنها تكرس نفسها للآخر : وهم الغرب « المتقدم » ولكن بالدرجة الاولى، وهم « الغرب الحليف » .

ان (المرأة والوردة) ليست « لحظة وهمية » تلتقي فيها ، كما يحلم (يوسف الخال) « طريقتان للحياة ، احداهما نابعة من التراث والتقاليد والاخرى تطبق عليها من جميع الجوانب وتتسرب اليها مع الهواء » (أنظر : ظهر الغلاف) كما انها ليست « حكاية الضياع والفراغ والحرمان فى كل مجتمع قديم لا مهرب له من الخضوع لتأثير العصر » (نفس المصدر) . انها نص يوجد في علاقة ايديولوجية مع واقع محدد ، ولهذا فان اكتشاف قوانين هذا الواقع هو ما يمكن ، فقط ، من اكتشاف قوانين النص نفسه : كوجهة نظر (ليست بريئة اطلاقا) وكـ « انطباع » ولكن ، وبشكل اساسى ، كتعبير عن ايديولوجية قطاع من الطبقة المتوسطة ، فى المغرب سنة 1970 ، هذه الطبقة التى تتصف ، عادة ، « بالتفاهة وضيق الافق » (لينين) .

تطوان – ابراهيم الخطيب

تحليـل نقدى

قراءة في مرآة النهر المتجمد

بناء جديد لمعطيات واقع متحرك

محمد المعطى القرقورى

فى البدء اريد أن أثير قضية نقدية هامة ، كنت قد أشرت اليها في تحليل سابق لاحدى قصائد أحمد المجاطى ، نشر بجريدة الكفاح الوطنى . والقضية تتعلق بالامكانية التعبيرية والابداعيـة لفنوننا الادبية التى يشملها ادبنا الحديث ذلك اننى أرى ــ وهذا ما اكدته فى مقدمة التحليل السابق ــ أن القصـيدة الشعريـة الحديثة بالنسبة للشعر المغربى ، تعتبر فى نظرى من اقدر فنوننا الادبية على التعبير عن الواقع المعاش ، وهى بذلك تعد المنظار الاكثر شفافية ، الذى يستطيع المرء أن يرى من خلاله جذور الواقع المتحرك لمجتمعنا فى مستوياته المختلفة ، وهذا ما يندر أن تقوم به القصة او الاقصوصة ، ولا أقول الرواية ، ولست اريد من هذا القول المفاضلة بين فنين تعبيريين لكل منهما مقوماته الاساسية ، وانما قصدى يرجع فى الاساس الى أن القصيدة الحديثة أصبحـت تقوم بدور خطير فى استكشاف المعطيات الدقيقة للواقع النفسى والاجتماعى والسياسى والفكر ى للانسان المغـربى . والشاعـر الاصيل يحقق كل هذا فى قصيدته ، نظـرا للامكانيات الفنيـة والتعبيرية المتاحة له بفضل الثورة الشعرية الرائدة ، التى آمن بمنجزاتها الفنية والفكرية كل الشعراء العرب الحديثين . ويعتبر

من اهم تلك المنجزات ، ذلك التحرر الفعال من رتين القوالب السلفية ، مع الحفاظ على روح الاصالة الفنية والتعبيرية للشعر العربي . اما بالنسبة للقصة ، واخص بالطبع القصة المغربية ، فهى فى نماذجها الاكثر اكتمالا ، لاتعد وأن تكون وصفا خارجيا لمعطيات واقع جامد ، ذلك أن القصاص المغربى ، وهذه حقيقة أمره ، لازال يعيش حبيس الاشكال والقوالب الجامدة ، وهذا يعنى أنه يبحث عن الشكل الملائم الذى يسمح له أن يعكس واقع بلاده بطريقة ملائمة ايضا .

والقصيدة التى أعمل على تحليلها الآن ، تعد نموذجا طيبا يستطيع القارىء المتذوق لفن الشعر من خلالها أن يقف على مدى قدرة الشاعر فى رصده أدق معطيات واقع بلادنا بامكانيات فنية معبرة ، لا يستطيع ان يخفيها ذلك الغموض الموحى ، الذى يلجأ اليه الشاعر ، كضرورة فنية لابد منها ، وهي بذلك تعبير من انضج الاعمال الشعرية التى أتيح لى قراءتها للشاعر المبدع احمد المجاطى ولغيره من الشعراء المغاربة المنتمين للمدرسة الحديثة ، حتى الآن، وهذا يعنى جملة اشياء . يعني اولا : أن أحمد المجاطي يعمل بجد على تطوير البناء الفني والفكرى لقصائده ، ليجعلها قادرة على صياغة منظوره الاجتماعي صياغة شعرية بديعة تحفظ للقصيدة عناصرها الجمالية الاساسية ، وهو يعني ثانيا : أن الشاعر المغربى الحديث ، فى المستوى الادبى العام لبلادنا ، قادر على معانقة واقع بلاده وتصويره بكل مقوماته تصويرا شعريا فى أعلا مستوى فنى ممكن.

بديهى ان كل فنان أصيل ، كيف ما كان نوع مجاله الفني ، لابد أن يكون له منظور محدد يعكس بواسطته مجموع الافكار والمبادىء التى تحدد شخصيته الفنية ، سواء كانت تلك الافكار ذات طابع اجتماعى ، او فلسفى او سياسى ، ونظرا للدور الخطير الذى يقوم به الفن فى حياة الافراد والجماعات والامم والشعوب فان الفنان مطالب فنيا وفكريا ان يحدد له منظورا اجتماعيا يطرح

بواسطته ما يتطلع اليه مجتمعه فى حاضره ومستقبله ، ومن هنا تبرز الصفة التاريخية التى يجب أن تطبع العمل الادبي والفنى ، اذ أن كل عمل فني تسقط عنه هذه الصفة اللازمة لكل عمل فكري تقدمي يهدف الى تحليل جدلية الواقع الاجتماعي والتاريخي لمجتمع ما ، يعتبر عملا باطلا من اساسه . فالاديب او الشاعر فى محاولته رسم صورة مستقبلية لمجتمعه ، لابد له أن يقيم بناء جدليا من مقومات الحاضر ، وهو فى هذا وذاك مطالب بأن يفتح عينيه على أدق الحركات التى تلحق بالبناء الكلى للمجتمع فى مساره التاريخي العـــــام .

ان اهم ما اثار انتباهي عند قراءتي لقصيدة المجاطي (قراءة في مرآة النهر المتجمد) التي نشرت فى مجلة اقــلام ، العدديــن الاخيرين من السلسلة الجديدة ، هو ذلك البناء الجديد لمقومـات واقعنا المعاش ، هذا البناء الذى حقق الشاعر عن طريقه صورة شعرية غنية جدا بالايحاءات المعبرة التى تعكس بصدق الهزات العنيفة التى أدت الى حركة عريضة شملت واقع بلادنا بكل معطياته والشاعر عندما يعرض امامنا صورة هذا الواقع المتحرك انما يهدف، وهذا فى اعتقادى هو القصد الاساسى للشاعر ، الى ابراز تلك الجدلية التاريخية الكامنة وراء كل هزة تصيب البناء الكلى لمجتمعنا المغربى ، هذا المجتمع الذى يبلغ الصراع أوجه بين عناصره المختلفة فى الآونة الاخيرة . ونحن من خلال فهمنا وادراكنا لعناصر تلك الجدلية ، نستطيع أن نقف مع الشاعر على أهم عناصر الصراع الدؤوب الذى يشكل باستمرار على أرضية الواقع الآنى لمجتمعنا ، وفى محاولتنا لادراك جذور هذا الصراع ، نكسر الجدار الوهمي الذى قد يحجب عن اعيننا آفاق المستقبل الرحبة التى أخذ شعبنا يشق طريقها الشائكة منذ أمد .

فى المقطع الاول من القصيدة تطالعنا صورة مجازية دقيقة ، اعتمد الشاعر فى تشكيلها على اهم العناصر المكونة للواقع المغربى،

وقد اختار لها الشاعر اطارا جدليا بارز المعالم ، ساعده كثيرا على ابراز الطابع الجدلى الذى اصبح يطبع واقع حياتنا ، نتيجة للهزات الاجتماعية المتوالية التى عملت على تحطيم شبح ذلك الجمود الذى كان يحجب بظلال زائفة الحركـة الدائبة لواقع مجتمعنا الحـى المتفاعل . يعرض الشاعر فى بداية المقطع المشار اليه ، صورة هذا الواقع المتحرك ، وقد غدا كسيل عارم يحمل فى غثائه كل المعطيات التى تكون فى مجموعها البناء المادى والفكرى لمجتمعنا ، ويحفر السيل مجراه على امتداد طولى ، الى أن يصل الى ذلك الجدار المتداعى المقام فى آخر الطريق لكى يقى القابعين خلفه من مخاطر السيول الجارفة فى الشتاء القاتم ، فيرمى بكل ما يحمله من متناقضـات فى وجه الجدار الرابد على عمق واقعنا ، وبالرغم من أن المد لم يكن فى هذا الموسم من القوة بحيث يمكنه أن يقتلع الجدار من اساسه ، فان مياه السيل خرقت بقوة احجاره المتزحزحة ، وصارت خيط ماء عمت مياهه كل بقعة فى ارضية الواقع . الا ان احجار ذلك الجدار التى زحزحتها قوة السيل لازالت تقاوم فى عناد كاذب لن يستمر طويلا ، ذلك أن التربة التى ترسو فوقها هذه الاحجار اصبحت ــ وبشكل ملحوظ ــ تنذر بالرسوب المحقق الوشيـك الوقـوع . يقول الشاعر فى تصويره الشعرى الرائع لهذا الوضع :

يحمل فى غثائه الاشجار
والتربة السوداء والموائـــد
الصمت والقصائـد
ودار لقمان واضلالها ، والمدن الاسوار
حتى اذا أتى رحاب السور البعيدة
ألقى نثار الغضبة الحمراء
وصار خيط ماء
يضحك سور القصر فى مرآته العنيدة
ألكننى اخرج من سوالف الاوتاد

امازج الاعشاب والاسماك والطوبا
ادق باب السجن في مراكش ، افلت من محفظة الجلاد
ارسم فوق جبهة السلط
علامة الثورة ، ثم انثني دؤوبا
اغوص في قرارة الامواج مصلوبا
اغوص لا أرى سوى احذية الفرسان
وصدأ الحديد في اسلحة الميدان
كان ذلك الاطلس العاشق حين رقرق الماء
بكى دما ، وشق في الصحراء صحراء .

ان الانسان المغربي الذي هو بالطبع وراء كل حركة تهدف الى تغيير واقع بلاده القاتم بواقع متلألىء بسام ، قد خرج والى الابد من سوالف اوتاده وقفز من اعماق زنزنته ، ليعانق واقعه رغم قتامته وليشق طريق الخلاص بايمان راسخ متحديا بذلك جميع عناصر القمع المتسلطة عليه ، التي طالما حاولت أن تخفي صوته تحت قعقعة السلاسل والاغلال ، وتسحق وجوده بوحشية نـاذرة الوجـــود .

ان هذا الانسان رغم كل ما قد يحجب عن عينيه حدود الرؤية الواضحة للمستقبل القريب والبعيد الذي هو قدره ، فانه دؤوب في مسيرته الطويلة الشاقة ، متحفزا دوما لان يكون في طليعة كل مد يهدف الى دك قلاع الظلم والطغيان ، ويحمل الماء الزلال للاراضي العطشى حتى تنبت النبات الطيب الذي ينعش كل حي

تأتي بعد هذا الصورة البيانية التي يضمها المقطع الثاني من القصيدة ، وفيها نشاهد الشاعر وقد ذاق مرارة الهزيمة وهو بعد في الشوط الاول من معركة مصيرية محتومة ، يصيح فوق سطح الواقع الغافي بصوت مبحوح ، يعلن في تحد بطولي لظلال الهزيمة، عن رغبة دفينة في اعماقه ، تدفعه الى مواصلة السير الحثيث

في ذلك الطريق الوعر الذي سقط على امتداده ابطال عديدون ، وهو اذ يضرب في طول الطريق ، لا يفوته أن يضع من دمائـــه اكاليل الزهور على مصارع الابطال الاولين الذين وضعوا معالم هذا الطريق بدمائهم الزكية . ان وعورة الطريق وخطورة الحواجز التي تتخلله ، لم تستطع ان تحجب عن اعين الشاعر ، ذلك النور الوهاج الذي يملأ الافق بضياء الامل الكبير ، المنذر بميلاد الفجر الجديد ، والذي على أساسه يضع الشاعر خطواته المتلاحقة في طريق الخلاص لذا فاننا نجده وقد أحس بعظمة المطلب وجلال المسعى الذي يهدف اليه في مسيرته الواعية ، يضع واقعه بكل مقوماتـه ، موضعـــا لتساؤلات عديدة يتداخل بعضها في بعض مشكلـة في الاخيـر سؤالا واحدا . وتكبر صيغة السؤال حتى تشمل في النهاية ماضي الشاعر وحاضره ومستقبله ، وبتعبير اكثر دلالة ، أقول تشمل هذه الصيغة العريضة الواقع النفسي والاجتماعي والسياسي والفكري والتاريخي الذي يحدد شخصية الشاعر فلمن تكون يا ترى المسؤولية الكبرى في هذا الانهيار المخيف الذي ينحدر اليه واقعنا ؟ وهـل مسؤولية ذلك ثاوية في قعر ماضينا ، يتحمل وزرهـا اسلافنـا الاوائل ؟ ام هي شاخصة في حاضرنا ، ونحن تبعا لذلك نتحمل تبعاتها في كل ما يلحق بنا من هزائم ؟

ان الاجابة على هذا السؤال في هذا الظرف ، لا يمكن ان تكون لها قيمة ، بل لا يجب ان تكون لها أية قيمة ، ذلك أن السؤال الذي يتحتم على كل واحد منا ان يجيب عليه عمليا هو ما الح اليه الشاعر في نهاية المقطع ، ومضمونه . من يستطيع ان يتحمل مسؤوليـة الانقاذ ؟ . يبدو واضحا أنه بالاجابة العملية المنتظرة على هـــذا السؤال ، يكون الانسان المغربي قد اعطى للعمل الانساني الواعي مدلوله التاريخي الخالد ، وفي اطار هذا العمل الهادف يتحـــدد جوهر وجودنا الانساني على هذه البقعة الارضية الطيبة . التي ندين لها بوجودنا واستمرارنا . ولنقرأ المقطع لنرى كيف استطاع

الشاعر أن يبرز هذه الحقيقة بتعبير شعرى رائع ، يقول الشاعر :

وها انا على مدار الطحلب الغافى
انسج من سمتى ومن نعتى واوصافى
خط مداد ، مطرا جائع
لافتة تسير فى الشارع
فيافلول الزمن الضائع
دمى على مصارع الابطال نوارة
رسم على معصم ، عروة اسواره
سلافة تخرج من اقبائها القديمة
وها أنا على مدار النصر والهزيمة
اسأل حد السيف سور القصر ، ماء النهر
رأس الوطن المقطوع
لون العلـم المرفوع
اسأل صك البيعة الشمطاء من اوقعها
فى قبضة الاطفال ، من ينقذها
من ولع الاطفال باللعنة والشتيمة .

لقد تحددت اذن صيغة السؤال الذى يطرحه واقع الانسان المغربى ، وبدا واضحا جوهر العمل الذى يتحمل ذلك الانسان مسؤوليته الكاملة فى اطاره ، وبقى علينا أن ننظر مليا فى الاجابات التى يمليها الواقع الشاخص أمام أعيننا ، وبالتالى علينا أن نفهم جيدا اللغة التى يجيب بواسطتها ، وأن نتقن تركيب حروفهـا المتناثرة على ارضيته . أكيد اننا كلما اطلنا النظر فى معطيات واقعنا كبرت الحروف التى يخطها هذا الواقع ، وتظافرت مع بعضها البعض لتعطينا فى نهاية المطاف ، صيغة متينة لجواب مقنع ، لا يوجد بيننا من يطعن فى صحته ، وهذا ما اكـده الشاعـر فى الصورة الشعرية البديعة التى ضمنها المقطع الاخير من القصيدة ، يقول الشاعر مبدعا فى تصويره لذلك الايمان الراسخ الذى يحذو الانسان

المغربي في طريقه الى الخلاص وتلك العزيمة التى لاتفت من قوتها تلك العواصف الصحراوية التي تهب من حين لآخر ، وعلى امتداد الطريـــق :

كبرت الحروف في المرآة
كبرت يا نهر ، نمت من حولك الاغصان
وخرجت احجارك السوداء من اسمائها
وخرج الزمان
فمن يقول أن هذا السور
هـــو القيـــد
هـــذا التـــاج
لا تخرج من اسمائها ندى وصهباء
ومن يقول ان هذا الاطلس العاشق
حين رقرق المـاء
بكى دما ، وشق في الصحراء صحراء .

وبعد . لقد حاولت في هذا التحليل المتواضع لقصيدة (قراءة في مرآة النهر المتجمد) أن أوضح للقارىء الكريم ، كيف أن القصيدة الحديثة تستطيع أن تنقل هذا الواقع العريض الذى يشيد بنـــاءه انساننا الحديث من دمائه التي لا تفتر ، ولا تنضب . وان كان لى أن أقول بعد كل هذا كلمة اخيرة بخصوص القصيدة من جوانبها الفنية المتعددة ، فانني اقول وانا اعى ما اقوله أن الشاعر احمد المجاطى سواء في هذه القصيدة او في غيرها من قصائده الاخرى التي سعدت بقراءتها ، يقف بحق في الصف الاول من صفوة شعراء العربية الكبار الملتزمين بقضايا شعوبهم المصيرية ، وذلك لما يتوفر عليه من مقتدرات فكرية ومواهب فنية ، قلما تتوافر لغيره مـــن الشعراء ليس على مستوى الشعر المغربي فحسب ، بل على مستوى الشعر العربي الحديـــث ، والقصائد الـــتي نشرهـــا الشاعـــر في

السنوات الاخيرة تعطى لكل متشكك الدليل الساطع على ما أقوله. وان من جملة المميزات الهامة التى اليها اهتمامى الكبير وأنا اقرأ قصائد احمد المجاطى ، ذلك البناء الفنى المتجانس المتين الذى يطبع القصيدة بطابع معمارى بديع يسهل على القارىء المتذوق لفن الشعر التفسح فى الآفاق الرحبة التى يشيدها الشاعر من معطيات الواقع المتحرك لمجتمعه ، هذا بالاضافة الى السبك اللغوى الصلب الذى يمنح القصيدة قوتها البيانية اللازمة . ومن يتمعن فى القصيدة التى جرى تحليلها فيما سبق يقف على حقيقة ما اقول .

وأخيرا فاننى متأكد من أن احمد المجاطى سيفتح نافذة جديدة فى عالم الشعر العربى الحديث وذلك عندما يجمع قصائده ويصدرها فى ديوان شعرى يمكن بواسطته للقارىء العربى أن يستنشق نفسا شعريا جديدا ، له نكهته بين شعراء العربية .

القصر الكبير : محمد المعطى القرقورى

اللعنة ـ البحر

محمد العياشي

بحثت الساعة عمن العنه فلم الق الا شخصا واحدا ، أعرفه كل المعرفة ويعرفني حق المعرفة ، واني معجب به وبغرفته التي طالما تفكه بوصفها .. والتي لايغادرها الا في ظروف مجهولة ، يجعلني بسببها اتبعه .. وقلما اتركه ، وقلما اترك بعده الغرفة في صمتها الاسود تبتلع الفراش الواسع الذى لم يعرف نظاما ولا نظافة .. والكتب المبعثرة هنا وهناك .. والصور الملصقة والمقلوبة بدون ذوق .. وطالما حاولت أن أتولى تنظيم الغرفة بنفسي وعلى الاقل أن أعيد صور الفدائيين وغيرها الى وضعها الطبيعي .. لكن صاحبي لا يجوز على تغيير شيء ، بل انه ليرى فى تلك الفوضى شيئا ينشرح له صدره .. ومن غريب الامور انى حين أضيق بذوقه أتسامح وأتغافل .. ولكن اليوم ..

ولكن اليوم احس انى محتاج الى ان العنه وأن افرغ كل ما يغتلي فى صدرى ، خاصة وأن صاحبى أمسى على غير عادته .. انه أصبح ثقيلا ، ملفوظا في الفراغ .. مقطع الانفاس ، يسأل بعينه عن هويته .. وعن لونه بين صخور شاطيء البحر ، الذى نزله منذ حين ،، وانه ليهفو الى حديث عجيب ، معى ، وأنا لا أحب ذلك ، ولا اطيق ان اسمع منه .. وبالتأكيد لانى أعلم ما يدور فى خلده ، واشعر بالتقزز ، يفيض فى قرارتى .

كنهر احساس مريض
يبعثر الحقول

يحيلها مستنقعا
ازهاره ذبول ..

منذ ثلاث ساعات فقط ، كان صاحبي يتقلب فوق فراشه . ككل حيوان وبالضبط ككل حمار يحك جلدته فوق التراب ، كان يتقلب من اليسار الى اليمين . ومن أعلى الى فوق تائها كأى سفينة مندفعة نحو الارتخاء ..

منذ ثلاث ساعات فقد الحد الفاصل بين الحقيقة والوهم ، ولايزال الساعة يبصق ويبصق على الحقيقة والوهم معا ولا يعرف أيهما يخدعه . ويتمنى لو احتواه الظلام الى ما لا نهاية حتى لا ألعنه الى الابد .. وهو مع ذلك يرنو الى بعين مقروحة كى أستمع له وأن أعيد معه خيوط الصور المتقطعة التى مرت به وبى منذ ثلاث ساعات ولو شاء لمنع تلك الصور من أن ترشح الوانها فى زرقة البحر الداكنة .. الا أن صاحبى يعرف حاجتى الاكيدة فى لعنته ، قبل أن يرخى نفسه هاويا من فوق صخور الشاطىء ، داخل اعماق البحر المالح .. او طافيا فوق موجته كأى جثة عفنة تنتظر تعكير مجراها . ولو برائحة الخمرة الرخيصة التى تملأ جوفه .. ولكن أنى لى هذا ؟ وانى لى التخلص من قدميه اللتين اشتبكتا بقدمى وكفيه اللذين التصقا بكفى .. ولسانه الذى يسبقنى الى الحديث :

ـ لا .. لن تذهب

ـ ... ؟؟

ـ لن تذهب .. أريد أن أقص عليك قصة الساعات الماضية . قبل أن تذهب . ارتقب انى سأصمت .. لتتحدث انت ..

بالتأكيد أعرف هذه القصة ، قصة ساعاته الماضية .. وليتها كانت مثل قصص أقرانه أو أقرانى فى السن وفى الثقافة !؟ انى لآسف عليه ولى .. لانه لم يجرب أن يدخل السجن مع زملائه ، أو قل انه لم يتركنى أصلح من حاله ومن حالى أيضا ، ولم يرد أن

يترك روحه التى تخاطبنى تموت بين الحين والآخر ، او الى الابد ، حتى اصبحت وأمسيت أحمل كل أوساخه .

ومع ذلك منذ ثلاث ساعات وجدتنى فى غرفته ملزما بمواساته لانه هائج .. وكعادتى لا ارغمه على شىء ، مهما كان ، فهو دائما فى انتظارى وفى انتظار كلمة تبارك سلوكه ، وأن أفتح باب الغرفة على مصراعيها ، ريثما تدخل من يرغب فيها .. وأنا معه من المنتظرين ، بغير قلق ، وان كنت اخشى ان ينقلب الصمت داخل الغرفة عيونا تأكل وجودى قبل وجوده ، وأن ينقلب استلقاؤه فوق الفراش احتضارا عنيفا .. والسؤال الذى لايعرف سواه حكما بالعجز والبرودة وعلى أى فهو لايسأل الا عن فريسة ومخالب .. ومن حسن الحظ اتفادى كل شر قبل أن يقع .. ومن حسن الحظ انى بمجرد الاحساس بهيجانه .. وجدت الفريسة التى ينتظرها آتية . دون أن أبحث عنها .

وكعادة صاحبى انه يتعرى .. وينسى انى موجود وينسى انى أشمئز من صورته ومن صورة فريسته أيضا .. وكان يرضى بالعلاقة التى بينه وبين فريسته . وكان يرضى ذلك فقط لانها من اجله .. الا انه ليس من عادته أن يغضب مثل اليوم وأن يسابقنى الى معانقة صاحبته التى تبدأ بى قبل أن تنصرف له .. وتحادثنى قبل أن تحادثه .. ومن قبل كان لايعير انتباها ، انه اليوم ليس كعادته وحتى صاحبته اعترفت .

ــ ما له ؟ صاحبك ليس كعادته .. أتراك قد تفلسفت معه .. انه ليريد أن يأكلنى وأن يخوض فى ..

ــ لانه ليس كعادته ..

ــ .. ؟؟

ثم بدأت تتعرى أمامى وقد أعطت ظهرها لى .. ووجهها الى صاحبى ، الذى أصبحت لغته الصمت .. والتأمل والقلق .. والتمنى

.. ولم اكن عاجزا أن أقرأ كل ذلك في سواد عينه . وأكثر من ذلك .. فلم أجد بدا من الاختفاء ، او الموت الموقت لبضع لحظات ريثما ترجع الحياة الى مجاريها ولكن صعب عـــلى ذلـك فحتى انـا لست كعادتي .

وحين هممت بالاختفاء ، في مكان ما .. وجدت صاحبي قد تحداني . وشدني اليه .. وهو يلح أن أقف معه ، وأن أسنده وأسانده في حربه الحمراء التي لاينهزم فيها سواى حين اضطر الى دفع جميع الثمن من جيبي .. وحتى من صحتي .. الا انه لا يحق لي الندم فهو بارع في صموده وفي هجومه يلقي بثقله على اللبوءة المرتمية تحته ، يطعنها بسيفه الذى لا يغمد .. ويعطيها شرف الاستشهاد كبطلة من بطلات العصر ، ويجعلها فريسة تفتخر على مثيلاتها المتربصات للعجائز في ثنايا الشوارع .

لست اندم وان احسست بضرورة لعنته خاصة حين ترك سيفه يضرب . منذ ثلاث ساعات في كل اتجاه .. يغرسه في صدر ضحيته ويغمده في ظهرها وفي قلبها وحتى بين فكيها .. لست اندم ولكنى أشعر باللعنة ستخرج على كل حال ..

تلك هي قصة الساعات الماضية لم يجد بدا من اعادتها على مسمعي ، دون أن أشعر .. وأنا معذور في أسوأ الظروف ما دام صاحبي سيموت وسيحمل اللعنة التي بدأت تتسلل من بين تفكيرى وأنفاسي لتخرج دفعة واحدة .. أنا معذور بلاشك لانى سألعنه بعيد قليل . بل اني لألعنه الان دون ريب واجهضه .

وحينما اجهضه
يبقى بلا ظل ولا ريش ..
وينسحــق
ككل خفاش أماتته يد الصباح
في موطيء القافلة

وينتهى مثل انتهاء دهشة الطفل
عند انكشاف لعبة الحول ..

حين لفظت كلمات اللعنة .. شعرت بهواء البحر البارد يفصل بيني وبين صاحبي وشعرت أن قدميه وكفيه قد ارتخت وانفصلت عن قدمي وكفى .. وأني بدأت اتحرك الى الامام بينما « هو » بقى ككومة ثلج فوق وبين صخور الشاطيء ، وقد بدأت الامواج تبتلع شيئا فشيئا رمال الشاطيء وصخور الشاطيء .. وهأنذا أسير دون أن أفكر فى الطريق الذى اسلكه . ففي آخر المطاف سأصل الى غرفته هو حتى أعيدها الى النظام . لاسكن فيها وحدى . وهكذا بدلا من البحث عن مواطيء القدم . فضلت البحث عن بقية ضوء فى الافق ، وعبثا حاولت أن أعرف حدود الافق من حدود البحر وأن اتعرف على حدود النزر فى ساعتى .. ولم اجد فى النهاية الا أن أسير فى مكان ما ، فى زمان ما مبتعدا بكل خطوة عن صاحبى الذى لاشك قد انتحر هناك .. تجذبه الى قاع البحر مرارة اللعنة .

* — *

للمرة الثانية بحث عمن العنه ، فلم الق الا رجلا واحدا ولكنه ليس كصاحبى اسمع به فى كل وقت بالمناسبة وغير المناسبة . وان الرغبة الشديدة فى انتزاع جميع الاحصنة التى يركبها والاسلاك التى يشدنى اليها . ثم فى تمزيق القبعات التى يشتريها كل حين . وأنا هنا امشى حافيا تحرقنى لفحة الشمس والظروف التى تجعل نظام غرفتي الجديدة بدون جدوى .

للمرة الثانية اجد ضرورة اللعنة وانا انتظر غير ما كنت انتظره وصاحبى ... فقد اصبحت وأمسيت لا أفتح الباب الا لمن يعرف مقدار حاجتى للعنة ...

ــ .. لقد كان صاحبك المرة السابقة هائجا كغير عادته ... انه أعجبنى كثيرا ، وأنت كذلك ما دمت تفهمه ولا تعاملنى كأى مومســـة ..

ـ .. لانه كان على وشك النهاية !

ـ اين هو ؟

ـ هو .. مات

ـ .. ؟؟

ـ تركته منذ يومين ملعونا يغرق فى البحر الذى لم يغادر شاطئه .

ـ وانت .. ألست محتاجا .. لى ؟ يعنى ؟

ـ سيدتى المومس ! هل وجدت من تلعنينه ؟

ـ .. ؟؟

ـ عليك ان تلعنى مثلى من جعلك تبحثين عن صاحبى ..

مبـارك الدريبـي

(اقصوصة) كل شيء يتغير .

تطلع الشمس ، فتمسح بأشعتها ناصية البيت المتداخل على نفسه بين دور صنياك الشعبية والقديمة . الاشعة دافئة كيد أم ، تتسلل من النافذة وتنحدر الى داخل الغرفة البسيطة . كان طلاؤها اصفر . دولاب خشبي مريض الاقدام مهزوز الاضلاع يسند جسمه الى جدار الغرفة . نافذة ، تشبه كوة زنزانة ، تفتح فمها لتلعق هواء الطريق الذاهبة الى « عين السبع » والمنحدرة الى احياء السينما الرياض . صندوق كبير مهترىء ، قديم كوجه قابض الضرائب في المدينة ، يقبع بزاوية الغرفة ، يجاوره أناء القاذورات الممتلىء حتى الشبع بنفايات جسد كبير ومريض .

هناك ، بعيدا ، تنحدر خطوط ربوات « الفوارات » شامخة ، خجولة وحزينة بأحراشها . وبمكان ذلك المستشفى ، كانت عين ذاكرتك تطل على مزارع ملأها نبات الفول والفصوليا . كذلك بمكان مدرسة « موتي » كان هناك الفرن الذى تزحلق والتصق بدار العسولي الذى يلبس السروال القصير . كان يأتي الى الفرن مع المساء ، يثرثر مع العسولي ذى الخصلة التي تحنو على خديه الموردتين . كان يأخذ كرة العسولي بالقوة . كان يلعب معه بالقوة . كان العسولي « البورجوازى » لا يحب الا نفسه . كان الجياع من ابناء الزقاق يأكلون العسولي بعيونهم المتلئة رمضا والمحمرة الجفون .

بالبيت الصغير ، كانت كؤوس الشاى تلمع تحت ضوء القنديل الزيتي . في الخارج ، الازقة ، عادة ، تكون مظلمة الا من فانوس واحد قرب دار الجندى الاقرع الذى يطارد العسولي ، لانه

جميل ولان فى نفس الجندى الاقرع مرضا . تكون ، عادة ، زينب بالمطبخ ويتكىء عثمان على الوسادة ، يدخن ويتذوق سكينة الليل. ومن المستنقعات القريبة من طريق « باب فاس » تردد الضفادع سمفونيتها الرتيبة والدافئة فى هذا الليل الطويل .

النافذة مفتوحة . الشارع الممدد ينام وهو يغتسل بأشعة الشمس . قرب السياج الحديدى للمستشفى العمومي ، تتعانق الظلال وارفة . كان نائما . فتح عينيه المتعبتيـــن والمنتفـختين ، وسافرت نظراته ، بعدما مسحت هذه الغرفة المريضة بصاحبها ، الى الشارع المشمس حيث يلعب الاطفال فى حرية . تنهد . الغطاء الصوفى لا يدفىء جسمه الهزيل . الوسادة محشوة بالحلفا ، قاسية على رأسه الذى اصبح كبيرا بفعل المرض والهزال . الاغطية غير نظيفة . تؤلمه بقعة البرودة والقاذورات بفراشه . وانسابت ليـــالى العمر كقطرات الندى ، تعيد نفحتها ذاكرتك الهزيلـة ، انتفضت ، فمسحتها اشعة الشمس القاسية . كنت شابا يافعا ، تطارد الفرشات التى تقطن بحيك . تقطف كل زهرة فتية ، تلعب بها وتلهو ثم تسحقها بقدمك الخشنة . كنت قاسيا . هكذا تمر الليالى كل شيء يموت . تألقت نظراته من تحت غلاف عينيه ، فرأى الممرضة تخرج من المرحاض ويتبعها ذو الشارب الطويل ببطنــه الكبيرة . النافذة تطل على مرحاض مستشفى الضحايا الذين اكلت النيران اكواخهم سنة 1946 . سنة ملعونة امها . سنة ترجل المرأة بمساعدة الجنود الامريكيين وشيوخ الاحـيـاء وسكوت الفقـهاء والسلطة . كان الفرنسيون يسعدون بزملائهم الاجانب . كان الفقهاء يدعون السماء والسعادة تطل من عيونهم الجائعة : « اللهم باسم الكتاب ، نبيع الارض والاحباب ..» هكذا يأخذك شريط الذكريات البعيدة .

كانت احجار الرصيف حادة ومحرقة فى قسوة الصيف . كانت العجلات الثقيلة تقضم من السكة الحديدية فى جنون . توقف

القطار القصير بجراراته الممتلئة بالاكياس وقطع الصابون في اكياسها الدافئة وعلب الاسماك وقطع اللحم للجنود . كان الرصيف محرقا كفرن . كان الخزان الطويل الاصفر الطلاء والمغبر النوافذ والجذران ، يفرغ الفول والفصوليا في جوف الباخرة « ازمرلدا » الواقفة ، بحجمها الجهنمي ، كبقرة بحرية ترضع من الخزان والرصيف الممتد الطويل ، بعماله وقاطراته النشيطة . كانت الباخرة جميلة ومتناسقة التقاطيع ، كنكهة ضحكة هذه الفراشة الرقيقة المتمايلة على نفحات النهر الباردة . الايدى تشد ، تجذب ، ترمي . تتقوس الاعناق ، تنحني ، تصيح الاصوات ممتزجة بدخان البواخر والحاملات العملاقة وصرير العجلات القوية . الصيف . رجال الجمارك تحلقوا قرب نقطة الحراسة . دخنوا ، ثرثروا ، واحتسوا الشاي المنعنع وهم يتصنعون الرزانة ويمسحون ثيابهم بأيد ناعمة .

كانت العاملة التي الصقت بها « فراشة الرصيف » يغيبها باب المرحاض الرمادي الداكن قرب الخزين رقم 4 ، المواجه لمنعطف النهر حيث النسمة باردة ، وطيور البحر مزدحمة على قادوس الاحياء الراقية ، تتصايح ، وهو يفرغ حمولته ، فتتقاطر الطيور الصغيرة، جائعة . كنت قوي الجسم والرجولة . كنت رئيسا لعمال شركة الشحن الكبيرة التي تكترى الرصيف بحاملاته وقاطراته الثقيلة . كان الجسم قويا . كان عثمان يعمل الى منتصف الليل بالرصيف . كانت زينب ، زوجه ، لينة كموجة النهر التي يقبل الرصيف الحجري المشمس والطويل . توقف القطار الصغير في عظمته ، نفخ صدره بقوة بخاره ، اطلق صفيره القوي . تصايح حولك عمال بوجوههم السمراء ، لوحت الايدى والاذرع . عيناك تأكلان الفراشة التي انفرج عنها باب المرحاض الرمادي الداكن . كانت نسمة النهر باردة ومنعشة . عادت الوجوه تكشر عن صراخها . كنت لا تسمع شيئا. اختطفتك مخالب القطار القوى ، مرت عليك عجلاته ، ورمتك ككمشة

عظام مسحوقة ، تتلوى ، تئن . مرت الفراشة لا تشعر الا بجسدها رميت بمستشفى « الغاب » . كان المستشفى باردا وبلا عناية . فراشك ذو الرقم 112 كان مهملا ومملا .

كانت الدور داكنة ، متداخلة وصياح الاطفال وضحكاتهم المرحة تمرق من النافذة المطلة على الساحة المشمسة الواسعة . فى الصيف، فى الخريف ، كان يتمنى ان يغادر الفراش . الاغطية مبللة . الاوجاع كحوافر الدواب ، تمزق امعاءك . المعدة فارغة . لا اكل بالبيت ولا احد يؤنسك فى وجودك هذا . وغابت زينب كما كنت ، انت ، تغيب الى منتصف الليل . كل شىء يموت حولك وفيك . غابت زينب يا عثمان . وقليلا ما تزورك ابنتك . تتبلل الاغطية ، فتبكى . من شقوق باب غرفتك ، فى الطابق الاول ، تتسرب الريح قارسة، فلا ترد عنك الاغطية والفراش البارد ، شيئا . كنت تبكى . كلما جاءت ابنتك المرضة بمستشفى « الغاب » لزيارتك ، تشعر بتمثيلها وضحكاتها الماجنة التى يؤلمك جرسها النحاسى البارد . تقترب منك فى فزع يغطيه خجل مصطنع ، فتقبل ناصية باردة كظهر سلحفاة حفرتها الايام والسن والمرض بتجاعيد غائرة . كنت تبكى وكان جرس ضحكاتها النحاسية يؤلمك .

تزحزح عثمان على الوسادة الخشبية . حرك راسه يسارا . سالت دموع متقطعة على الوسادة العطشى . ورايت هذه الطريق الذاهبة الى « عين السبع » ، فدوار صحراوى . كم اشرقت من شموس ولم تر عين السبع ولا احياء دوار الطبيب المغيرة ولا ساحة العلامة المتلئة بالحركة والنشاط وصراخ الاطفال فى المساء . قرب طريق عين السبع ، تقبع المدخنة التى تسلقتها فى شبابك . كانت ، فى القديم ، مصنعا للآجر . حولها ، الآن ، طرق متعرجة ومتخلفة ، عبدتها اقدام البدو والدواب فى الصباح الباكر ، واحذية المهربين فى الليل الصامت .

كانت ساحة المدرسة فارغة من التلاميذ ، واشجارها المقطعة الفروع ، بلا عناية . انحدرت الشمس وهربت وهى تزور عن غرفتك المريضة ، لتحتضن المدينة ونهر سبو والطريق المنحدرة الى احياء سينما الرياض ، فالمقبرة . الطريق رملية ، ضيقة ، ذات احجار صلبة وبيضاء . كان يحب هذه الطريق والاكواخ المجاورة لها . كانت هناك اكواخ تحتضن ساحة رملية بها شجرة كاليبتوس واحدة كان يختبىء فى فروع الشجرة وهو يترصد بكل عرق فى جسده ، خروج العسولى ليطارده . كان العسولى جميلا . وكان هو اقوى الجياع من ابناء دربه . كان يخافه العسولى ، فيصرخ . كانت جدته ذات العين المقوسة ، تصيح وهى تستغيث بصوت « حلوفة » جائعة . كانت ، فى ذاكرتك ، لاتغيب الشمس عن اكواخ البردى وحلالة . كل شيء حولك يموت . آه .. هناك رجل تقرفص قرب سور مدرسة « موتى » ، تبول ثم اخذ فى يده كمشة تراب ، تأملها ونثرها حبات رقيقة قبلتها اشعة الشمس الدافئة . هذه النافذة هى عينك التى ترى بها الدنيا . وتحت عمودك الفقرى وحول خاصرتيك بقعة واسعة كالبحر ، باردة ونتنة ، تؤلمك . كان صوتها يعود اليك قويا :

ــ سأرحل ..

ــ عيب يا زينب ..

ــ عيب ؟ هاها . هاها . وهل كانت افعالك يا سيدنا الزوج تعد عيبا ؟

ــ انا زوجك يا زينب . لا تتركينى هكذا ..

ــ من غرس الحنظل ، جنى الشوك .

واحكمت اغلاق باب البيت الذى بنته ابنتك من تجارة الزنا . كانت ابنتك ممرضة بمستشفى « الغاب » . كان لها عشاق . كلما انتصف الشهر وشقشق القمر على ربوع دور صنياك ، ازدحم الجنود على عتبة السلم الحجرى المؤدى الى الغرفة المجاورة . كانت لك

زوجات بالمدينة القديمة وبأحياء سينما الرياض . كنت تهجر ابنتك الوحيدة مع امها الشابة . كنت تصفع الباب الخارجي بعدما تمطرهما بلعناتك . هكذا الدنيا ، كل شيء في تغير مستمر . كل شيء يمـوت .

تأوه عثمان من الالم . وتقطعت في قلبه فرحة هذا الصباح . بالساحة الواسعة والمشمسة ، كنت تلعب بالكرة مع العسولي المخنث كنت صغيرا كفراشات روابي « الفوارات » وضاحك السن . قرب المقبرة ، هناك ، كانت القناة التي يغتسل بها البدو وترتوي منهـا الدواب . في حر الشمس وخشخشة الاوراق الميتة التي تتلاعب بها نسيمات المساء ، في ظل اشجار الكاليبتوس الطويلة ، كنت تسبح بالقناة مع رفاق لك ، عراة الا من البراءة والمرح .

هناك المقبرة المشمسة . بابها حديدي وبساحتها الامامية اشجار الكاليبتوس . عادت الغمامة السوداء تحوم حول عينيك . هذه اقدام الجنود تصعد درجات السلم الحجري . الازدحام على باب الغرفة المجاورة . والخوف والبرد واشياء تجهلها ، بصدرك المريض ترتع . جرس المدرسة يدق . وصراخ باخرة في الميناء الكبير يصيح على نفسه مودعا الرصيف المشمس الطويل . خرجت الممرضة من المرحاض . كان يتبعها ذو الشارب الطويل . كان الاطفال يلعبون بالساحة الكبيرة . من النافذة ، كنت ، تلاحق بنظراتك النهمة الى الحياة الكرة والاطفال الصغار . هجمت ظلال المساء كثيفة عـلى زوايا الغرفة الضيقة . هجمت غمامة الخوف والبرد على صدرك . تناثرت حبات العرق على وجهك القديم . نام ما كان بداخلك حيا .

مات وحيدا . كانت الشمس تهرب وراء الدور الداكنة الرمادية كانت دور منياك ساكنة . كانت النافذة التي تفتح فمها الضيق على الساحة الفارغة ، تتنفس في ضيق ..

قصــة قصيــرة

العودة

خير الدين محمد

(I)

مرت الآن تسع سنوات تقريبا عندما وقفت لاول مرة فى حياتي امام مجموعة من التلاميذ اتبادل معهم اول حديث ... عندما قدمني لهم الحارس العام كانت مخيلتي تعود بي الى ايام وجودى في المدرسة بين اقراني ، حين كان يدخل مدرس جديد فنقف احتراما له او خوفا منه ، فقد كان شبح المدرس فى الايام الاولى يخيفنا .

عندما بقيت معهم بعد خروج الحارس العام ، احسست نوعا من الغربة لم ادر مصدرها .

طلبت اليهم ان يكتبوا اسماءهم فى ورقة صغيرة وان يبينوا سنهم وحرفة الوالد اذا أمكن ذلك .. انتظرت بعض الوقت ، كنت خلاله امر بين الصفوف ، ابحث عن كلمات املأ بها الفراغ ، خاصة وأننا فى اليوم الاول من العام الدراسي .. اذكر ان القسم كان من اقسام الاولى ثانوى .. ثم بدأت اجمع الاوراق حتى اذا ما انتهيت بدأت اسرد الاسماء بصوت عادى ..

عبد الرحمان قاسم ـ I5 سنة ـ بائع متجول
احمد بن الطاهر ـ I6 سنة ـ فلاح
نور الدين الغالى ـ I5 سنة ـ تاجر .
عزوز الراضى ـ I5 سنة ـ عاطل .

وتلاحقت الاسماء امامي ، كان اغلب التلاميذ من ابناء الفلاحين او التجار في البلدة الصغيرة ، تلاحقت امامي الاسماء حتى كانت آخر ورقة بيدى ، الملاحظ انها مكتوبة بخط انيق جدا .. قراءت الاسم بسرعة دون ان اعرف لماذا ..

واحسست في نفسي شيئا يدفعني الى اكتشاف صاحب الاسم

« محمد علي ، 12 سنة ـ يتيم ، اتمنى ان تكون سنتنا الدراسية موفقة » ، ودون ان يتردد التلميذ ، وقف ، ربما احس أن نبراتي تريد أن تكتشفه .. كان اصغر تلميذ في القسم ، لون عينيه يذكرني بزرقة عيني ابن جيراننا الصغير ، وشعيراته القاتمة كانت تنحدر على جبينه الصغير لتجعله أكثر براءة ولطفا ، ويبدو عليه انه حازم وذكي ، أثارتني العبارة التي كتبها في آخر الورقة ، فقد تمنى أن تكون السنة موفقة ، ولم اتردد .. سألته في نوع من الجدية رغم انى كنت اعرف ان ما كتبه يدل على ذكاء ..

ـ لماذا كتبت تلك العبارة في آخر الورقة ؟

ودون ان يتردد وكأنه شعر بأني سأطرح عليه هذا السؤال اجابني بكل براءة .

هل اساءت اليك يا استاذ ؟

ـ فقط أريد ان اعرف .

ـ ألم تقل لنا يا أستاذ في أول كلماتك ، انك تتمنى أن نقضي جميعا سنة موفقة ؟

كان جوابه قد حكم علي بأن لا أضيف أي شيء سوى عبارة اشادة به .

ودق الجرس خرجت من القسم ، كان آخر من خرج من التلاميذ هو محمد علي . كان في مشيته يذكرني في ايام طفولتي ، لقد كنت هادئا مثله ، انه يشكل بالنسبة لي حالة خاصة ، ومنذ ذلك الصباح وانا اهتم بتلميذي هذا ..

(2)

ومع مرور الايام توطدت صداقتي معه وذلك في اطار العمل المدرسي ، ربما يرجع اهتمامي به لكونه يتيما ، فاليتيم عادة يحتاج الى انسان يشعره بجدواه في الحياة ، مواضيعه الانشائية في غاية الروعة ، هو دائما يستشهد بابيات لجبران ، ومن تم عرفت انه يطالع كتب جبران ، ذات يوم سألته :

ـ هل تقرأ لجبران ؟

ـ نعم يا استاذ ، وانا احبه لان ما يكتبه يعجبني وينسجم مع حياتي ، واقرأ ما يبدو حزينا في كتب جبران .

ـ ولكن يجب ان تكون متفائلا في حياتك .

ـ ليس في الحياة ما يغري يا استاذ

ـ ومع ذلك وجب ان تحب الحياة

ـ نعم ، ولكن التفاؤل لا ينفعني ، فانا يتيم ، وحين اتفاءل فذلك لا يجديني ما دمت اعيش عيشة الكلاب في الملجأ الخيري لهذه البلدة ..

ـ ولكن يجب ان تبتسم على الاقل وانت ما تزال صغيرا ، ويمكنك ان تحقق ما تريد ..

ـ سأكون متفائلا بعد اليوم لانك تريدني ان اكون كذلك ..

كنت دائما ادخل معه في نفس الحوار فلشدما يعجبني عندما يتكلم ، وهو من هؤلاء الاطفال القلائل الذين يفوق ذكاؤهم اعمارهم ..

وكنت كلما عدت مساء الى غرفتي اقضي الساعات افكر في هذا الطفل ، اذ لولا انشغالي بمشاكلي الحياتية لتبنيته حتى ينهي دراسته ..

في آخر يونيه عندما كانت الثانوية تحتفل بانتهاء السنة الدراسية ، سلمت لمحمد على الجوائز التي استحقها صافحني في

حرارة ، وعندما انتبه الى كتاب جبران فوق الكتب ابتسم ابتسامة تفاؤل اغرقتنى كثيرا ..

(3)

ثلاث سنوات مرت بسرعة ، كنت خلالها اعمل على أن يكون محمد على من بين تلامذتى ولان الثانوية لا تتوفر الا على الطور الاول فقد ظل ضروريا لن ينتقل الى مدينة أخرى ، وفى السنة الثالثة كان من بين تلامذتى ، لقد طالت اقامته ، غير انه ظل يحتفظ بنفس البراءة وبنفس الرأى الحازم ..

ذات يوم جاءتنى تلميذة كانت تجلس فى المقعد الامامى قريبة منه قالت لى :

ــ ان محمد على يجرحنى بكلامه يا استاذ .

هل ظننت تلك التلميذة انى سأعاقب محمد على ؟

كان من الممكن ان افعل ذلك ، لكننى كنت اعرف ، فى آخر الحصة طلبت اليه ان يبقى ربما عرف لماذا طلبت اليه ذلك ، احمرت وجنتاه قد متله بصوت هادىء :

ــ هل عندك مشكل مع فاطمة ؟

ــ لا يا استاذ ، قالت لى « عيون القط »

ــ هذا كل ما فى الامر

ــ نعم وانشدتها بيت عنترة

افاطمة مهلا بهذا التدلل وا ت كنت قد ازمعت صرمى فأجملى

عندما دق الجرس ، اصطف التلاميذ والتلميذات ، طلبت فاطمة ، دخلت ، تبادلا معا نظرات عبرت عن اشياء كثيرة ..

طلبت اليهما ان يتصافحا ، ومن ذلك اليوم اصبحت صداقتهما صافية خالية من اى تعقيد ، فقد كانا اصغر تلميذين .

(4)

ومرت تلك السنة ، نجح خلالها محمد على بتفوق ، وعندما علم بأنني توصلت بورقة انتقالي الى مدينة البيضاء ، جاءني تلك العشية ودمعات تترقرق صادقة في عينيه ، ولم يستطع ان يواجهني قلت له :

ـ ولكنك انت ايضا ستنتقل الى مدينة اخرى ..

كانت دموعه البريئة لا تترك له فرصة ان يجيب ، وتكلم والدموع تخنق كلماته :

ـ نعم ولكن سأكون وحيدا هناك فهنا كنت استاذي وابي واخي وصديقي وكل شيء .

ـ وسأبقى حتى بعد فراقنا ، خذ هذا الظرف ، فبداخله عنواني ويمكنك ان تكتب لي في اي وقت دون تردد

عندما التفت لحظة لارد تحية زميل في العمل رأيت فاطمة قادمة نحونا حيتنا معا ، ولم اشك في انها هي الاخرى تعرف كل شيء .. كانت دمعات في عينيها ، حاولت ان تكون اكثر تحملا من زميلها لكنها لم تستطع اجهشت بالبكاء ، ولكن هل كان قلبي قاس الى هذا الحد ؟ لحظتها انحدرت قطرات دمع من مقلتي ، كانت اصدق تعبير عن حبي لتلامذتي وعز على ان تكون دموعا آخر اللحظات التي اقضيها هنا . وما ذنبي وما ذنب محمد علي وفاطمة . ان الالفة حفرت اخاديدها في نفوسنا . ولحظة اخرجني من هذه الافكار التائهة صوت السيارة التي وصلت اللحظة ، ربتت على كتف فاطمة وداعبت شعيرات محمد على وصافحتهما . تحركت السيارة بقي تلميذاي واقفين يلوحان حتى غابا عن ناظري ، ولحظتها اسلمت لدموع غزيرة ولم اصدق ان فراقنا هذه المرة سيكون طويلا جدا ..

(5)

حياتى التى بدأتها فى المدينة الكبيرة لم تخل من مشاكل من كل نوع .. كانت حياتى هناك معقدة .. ومع ذلك فقد احببت تلك الحياة بكل تناقضاتها لكننى لم أكن اظن اننى سأصبح ذات يوم فى عداد العاطلين .. اذكر اننى ذات صباح من اصباح ديسمبر ، وقد مرت ثلاث سنوات على وجودى فى المدينة الكبيرة ، اذكر اننى توصلت بورقة صغيرة تمليتها كثيرا .. لكننى تحملت الواقع ..

قرأت هذه الكلمات « لقد قررت الوزارة اعفاءك من العمل ».

ولم ارد ان اتمم بقية ما كتبت .. عرفت ان الاضرابات الاخيرة كانت هى السبب ، وفى ذلك الصباح توصلت بخطاب من تلميذى محمد على قرأته : « يوم الجمعة المقبل سيكون حفل زفافى ارجو يا استاذ ان تحضر ، بدون حضورك سيكون عرسى تافهـــا » ، طويت الورقة .. وسرت فى الشارع . كان اليوم باردا ، ان قلقى اليوم فرض على ان أتيه ، وبالتأكيد فضلت ان اذهب الى منزلى بعد ذلك ، فانا لا اريد ان ازيد زوجتى هما ويأسا ، فوق الالم الذى كان سببه لها الحمل وفكرت بأن هروبى من منزلى لن يحل القضية .. لقد حكم على ان اعيش عاطلا ، الا اننى احمل ربطة عنق مزركشة بينما غيرى من العاطلين لايحملها ، ان ربطة عنقى تخدع الكثيرين عندما كنت ادخل المقهى لاجتر قلقى رديف كأس قهوة كان النادل لايبخل على بطيبوبة قلبه كأنه يتملقنى ، يتملق عواطفى ، وكنت أعرف .. ولكم تمنيت ان لو اصبحت اعمل مكانه خاصة وانه انسان متقدم فى السن ، لكن حلمى لن يتحقق ..

وكنت عندما يعييني روتين المقهى اقوم لاتيه داخل الادارات وانا احملق بعينين جاحظتين فى الملصقات فلعلنى اجد ضالتى فى ورقة ما تعلن عن مباراة وبالتأكيد لم أكن اجد الا الفراغ ، وكنت بين لحظة واخرى ، وبين صباح ومساء اتردد على مكتب التشغيل

انه من واجبى أن اصارع الحياة ، اذكر انني كنت اقول لتلامذتي : « ان الحياة جهاد وعراك » وقد اصبحت الآن اردد تلك العبارة لنفسي فالخبز يدفع الى الصراع واحيانا الى الجريمة .

(6)

مرت اربعة اشهر وانا عاطل ، لقد عرف جيراني القضية ، لكن لاشيء ، ان الارض لن تتبدل .. ترى الى متى اظل عاطلا .. ولكن ما جدوى ان يعرفوا اولا ان القضية تهمني وحدى ، وحتى الاسف الذى يبديه الزملاء لن يحل المشكل ..

لقد اصبحت فى حالة فقر شديد ، ان زوجتي تهددني بأنها ستهجر بيتي ، كنت اعرف انها ستقوم بذلك ، لكنني فضلت ان تبقى بجانبى ، حتى الوضع .. وذات يوم وانا اقطع الشارع فى اتجاه مكتب التشغيل ، وكان يوما ممطرا من ايام مارس سمعت صوتا ينادي ، التفت ، لم أصدق ، ولشدما كان فرحي كبيرا وأنا أرى فى اتجاهى شابا ذا عينين زرقاوين ، لم اصدق اول مرة ، لكني ايقنت انه محمد على تلميذى القديم ، وعانقني عناقا حارا انساني ثقل احزاني التى اعيشها منذ اربعة اشهر كانت بجانبه زوجته ، صافحتنى بحرارة ، نظرات فاطمة ما تزال هى الاخرى هادئة ، وقال محمد على :

ـ كيف الحال يا أستاذ ؟

ـ كما ترى يا عزيزى .

ربما اعطته لحيتي وهندامي فكرة عن الحياة التى اعيشها .

وعاد يسألني :

ـ فى اى مدرسة انت الآن ؟

ضحكت وانا افرك اصابعي :

ـ فى مدرسة الحياة .

ـ واين توجد يا استاذ ؟

ـ توجد يا عزيزى فى اى مكان .

ربما ايقن محمد على ، ربما عرف الحقيقة ، لذلك لم يعد ليسألنى عن السبب الذى منعنى من حضور حفل زفافه ، قلت له:

ـ وانت كيف تجد تلامذك ؟

ـ اننى اعاملهم كما كنت تعاملنى.

دعوت العروسين لمقهى قريب من المحطة ، قضينا فترة قصيرة فقد كانا معا على اهبة السفر الى افران لقضاء عطلة الربيع ، غاب محمد على لحظة ، ذهب لاقتناء جريدة ثم عاد ، حينما اعلنت الساعة المعلقة على الجدار الحادية عشرة قام ليودعنى ، الححت عليه ان يقضى اليوم عندى ، اعتذر على ان يزورنى مرة اخرى . لم أرد ان اجرحه ، عانقنى عناقا حارا صافحتنى فاطمة فى حرارة ، اخرج محمد على غلافا من جيبه ناولنى اياه ..

ـ خذ هذا الظرف فبداخله عنوانى الجديد ، ويمكنك ياأستاذ ان تكتب لى فى اى وقت ..

تحركت سيارة محمد على الصغيرة .. بقيت وحدى واقفا حتى غابت عن ناظرى السيارة البيضاء الانيقة ، فتحت الظرف ، وقرأت هذه العبارة :

« ان الحياة صراع وعراك » هكذا كنت تقول لنا ايام الدراسة يا استاذ وان علينا ان نتفاءل رغم الالم .

اذكر اننى عندما ودعت تلميذى فى آخر مرة فى تلك القرية كنت قد تركت له ظرفا ضمنته تلك الكلمات ومبلغ خمسين درهما فقد كان يتيما .

اعدت الورقة الى الظرف وبين يدى كنت اعبث بورقة من فائة مائة درهم فانا عاطل .

(7)

كان المطر ينزل فى تلك اللحظة ، تذكرت ان الماء يتسرب الى قدمي من خلال ثقب فى حذائى ، فكرت ان فى منزلى امرأة ووليدا زار الكون منذ اسبوع ، تذكرت ، ولحظتها تحركت الى اقرب سوق وسط المدينة ..

عندما وصلت والى منزلى كان الصمت مخيما ، ان زوجتى لا تستطيع ان تقوم بأى عمل ، كانت هادئة ، وحينما جلست بجانبها اغرانى بكاء طفل ، نظرت اليه كثيرا ، من خلال لون عينيه تذكرت ذلك الصباح من ايام اكتوبر منذ ست سنوات عندما وقف طفل يتيم ازرق العينين فى سن الثانية عشرة يحدثنى ، ابتسمت ساعتها ، غشى ضباب شفاف عينى الواسعتين « فلا شىء فى الحياة يغرى » هكذا قال لى محمد على ذات يوم ..

نظرت الى زوجتى ناولتنى رسالة وصلتنى هذا الصباح ابتسمت ، ابتسمت زوجتى ، ابتسم طفلى .. ثلاث ابتسامات ورائحة سمك مقلى تأتى من الجيران .

عادت الزوجة تنظر الى ، نظراتها تريد ان تقول شيئا ما ، لم اتردد .. خرجت الى السوق حينا .. المطر ينزل ، ينزل ، ينزل ، وبين يدى رسالة .. وانا اجرى وابتسم .. تسقط الرسالة من يدى التقطتها ، واجرى .. واطفال حينا لايخافون المطر ، يلعبون .. واجرى ، واجرى ، واجرى ، والناس ينظرون يتهامسون ، « مجنون مجنون ، مجنون .

سطات — خير الدين محمد

الليل هواية الكبار و الصغار

الميلودى شغموم

تهاوى الليل فجأة فوق الارض . نعقت بومة وانتحب غراب. لكن احدا من الممثلين لم يسمع . وسقطت ورقة التوت عن المرأة فتكلف الجميع جلسة الاتزان وابتسامة الوقار . اما هو فرفع القنينة وملأ الكؤوس للجميع . ثم قطب حاجبيه حين رأى أن البطون بدأت تنتفخ وما لبث ان أظهر أسنانه لما نظر الى هذه البطون مرة أخرى ورآها مدلاة كالقرب فوق السراول ، تقيأت الافواه الافكار والخواطر وتدلت النكت والنوادر من الرؤوس. عندها اكتشف أن الوقت قد حان . حمل سجائره :

ـ « عن اذنكم !.. عندى اجتماع هام »

علق أحد المقربين : « ستكذب عليهم كذبة أخرى على ما أعتقد!» أشاح بوجهه عنه وخرج . تبعه المقربون جميعا . غادروا الحانة متعثرين . وانطلقوا بسياراتهم لا مبالين كالاطفال متجهين نحو العمارة الفخمة حيث سيتناول الكلمة .

ها أنتم امامى أوراقا تبحث عن التبغ والارادة .
أنا لا أخاف . لكنى أخجل !
خنتكم ألف مرة . خنتم ألفين .

لماذا لم تشنقونى !؟ .. لماذا لم أشنقكم !؟
انتظرت أن تصرخوا وتمدو ايديكم الى الاقفاص .
أعلنت أمام الجميع : أنا لا أخاف ، ولكنى أخجل !
سمعت أطفالكم يقولون :

« الهواء قفص من جليد . الخبز والماء سلاسل . الطريق واللحم والكتان والسماء والهواء .. هل أحصيتم السجون ؟ » .. أنتم لا تسمعون .

قاطعه طفل صغير : لابد أن نموت !

ـ اسمع ايها البليد ! .. ليس بالورق والنشيد والعظام . احفر في رأسك بعض الثقوب . افرغه من اللعاب والشحم والورق والنشيد .. أفرغه من الطنين .

سكت الجميع . فعاد صوته كالصاعقة :

ـ اسمعوا هذا الرجل الآتى من القبيلة .. تكلم ايها الرجل بكل حرية . تكلم فأنت فى جماعة تقدس الحرية . انما لا تنس شيئا مما قلته لك !

وقف الرجل الآتي من القبيلة حاملا فى يده قفة وسخة ، وتكلم حسب مستواه :
ـ معشر الكلاب المريضة !

امتدت الرؤوس . وتابع :
ـ أتيت من جوف الارض المشوقة . واحد من الخراف المسعورة (هل تعرفون عدد الخراف التى اصبحت مسعورة ؟) .. لا يهم .. انما ـ الليل أمسى هواية الكبار والصغار .. باختصار : ما كلفت ولا انتخبت . ولكنى أتيت كما ترون جميعا . لم اجىء حاملا آخر انذار . جئت حاملا هذه القنبلة . مكانكم أيها السادة !.. أمرى لابد ان يطاع : احذروا أن تهربوا من بذلاتكم حتى لا تشوه لحومكم.

ـ انك مغامر

ـ اسمع يا عزيزى !..

ـ ستعاقب . نحن ..

ـ سأموت معكم .

ـ انك تخوننى .

ـ وماذا كنت تفعل انت طوال هذه المدة !؟.. هل تذكروز الشهادة .. لا يهم !

ثم نزل الستار وخرج المتفرجون مبتهجين ، انما كان الرعب يملأ قلوب بعضهم .

المحمدية : الميلودى شغموم

الجولة الاولى

مسرحية فى ثلاثة فصول

الشيخ – (شيخ القرية) عمره حوالى خمسين سنة . قصير القامة . يميل الى السمنة . لحيته تلفت النظر ، قد وخطها الشيب قليلا . لباس تقليدي من لباس أهل البادية .

عم القتيل – عمره حوالى ستين سنة ، يميل الى الطول ، مع نحافة . لباس تقليدى .

رحمة – زوجة القتيل ، عمرها حوالى ستة وثلاثين سنة . نحيفة ، لها تقاطيع صارمة . لباس تقليدى .

احمد – شاب فى الخامسة والعشرين من عمره ، شعر رأسه أسود فاحما . لباس عصرى . كاتب الشيخ.

ابراهيم – شاب فى الخامسة والعشرين من عمره . بعكس أحمد لا يهتم بهندامه العصرى . صديق أحمد . المعلم الوحيد بالمدرسة الوحيدة بالقرية .

الحلاق – حوالى الاربعين من العمر ، نحيل الجسم ضئيله .

بائع العسل – حوالى الاربعين من العمر . سمين بصورة مبالغ فيها . منشرح ، وله لهجة توحى بذلك . لباس تقليدى . على رأسه عمامة غير مستقرة ، لذا يهتم بها من حين لآخر .

الجيلالى البقار ـ حوالى الاربعين من العمر . جسم ممتلىء . له سحنة جدية . له اعتزاز بشخصيته . لباس تقليدى . عمامة بيضاء ثابتة تلفت النظر . له حقول وبهائم .

عمو الدجايجي ـ حوالى الثلاثين من العمر ، لا يهتـم بهندامـه ، فملابسه غير منسجمة . لا تلفت فيه النظر الا حقيبة جلدية مدلاة من عنقه .

الحارس الخاص ـ عيناه جاحظتان ، وعضلاته مفتولة ذلك ما يميزه عن الحارسين الآخرين . لم يتكلم طيلة المسرحية . بل يعقد يديه فوق صدره . وقفته ثابتة ، كأنـــه تمثـــال .

الحارسان ـ احدهما ادريس الذى يسرع الى الكلام دائـما ـ قصير ومتحمس .

الـزمـن أربعة أيام من نهاية فصل الخريف .

المكـــان قرية نائية من قرى العالم الثالث.

الفـصـــــل الاول

لـوحـــة اولـى

(ليـــلا ..
حجرة بسيطة ببيت قـــروى .
انـــارة ضعيفـــة .
(أحمد) كاتب الشيخ بجانب القتيل (بوعزة) مع الحارسين .
وعم القتيل . وزوجته .
يدخل (الشيخ) مع حارسه الخـــاص) :

المشهـــد الاول :

الشيخ ـ عم القتيل ـ الزوجة ـ أحمـد ـ الـحارسان ـ الحارس الخاص .

الشيخ (يتفحص جثة بوعزة) : متى وقع ذلك ؟

العـم ـ قبل نصف ساعة تقريبا ؟

الشيخ ـ وكيف .. ؟

الزوجة ـ كنا نائمين فدق الباب علينا أحدهم . وقام اليه زوجي وسمعتهما يتحدثان ، ثم دخلا معا الى هذه الحجرة . وبعد قليل صمتا .. ثم سمعت وقع اقدام تغادر البيت.. وانتظرت عودة زوجي بعض الشيء ، ثم قمت اليه .. فوجدته مقتولا .

الشيخ ـ وهل سمعت ما كان يدور بينهما ؟

الزوجة ـ أعتقد أنهما كانا يتحدثان عن السماد المسروق ، او شيء من هذا القبيل ..

الشيخ ـ وماذا قالا عن السماد المسروق ؟

الزوجة ـ لم أتبين بوضوح ماذا كانا يقـولان . ثم ان صـوت القاتل كان خافتا .

الشيخ ـ يعني أنك لا يمكنك أن تتعرفي على القاتل ؟

الزوجة ـ لا ..

الشيخ ـ أمتيقنة من ذلك ؟.

الزوجة ـ نعم يا سيدي لقد كان صوته خافتا جدا .

الشيخ — وبأى شيء قتله ؟

العـــم — لم نتعرف على ذلك بعد . انما ..

الشيخ — مـاذا ؟

العـــم — وجدنا بجانب الجثة هذا الحزام .

الشيخ (وهو يتفحصه) : لمن ؟

العـــم — لا ندرى ؟

الشيخ (يسلمه لكاتب) احتفظ به يا أحمد .. (وهو يهم بمغادرة المكان) متى حضرت الى هنا يا أحمد ؟

احمـد — قبل مجيئك بقليل .. اليس كذلك يا ادريس ؟

ادريس (وهو يحرك راسه) نعم يا سيدى الشيخ . (ثم يلتفت الى الحارس الآخر فيحرك هو الآخر راسه)

الشيخ — ومن تظنه القاتل ؟

احمـد — لست ادرى (ينظر الى الحزام)

الشيخ (يتسلم الحزام منه) من غير شك صاحب هذا الحزام .

احمـد — ربمـا ..

الشيخ (وهو يتردد فى ان يرد اليه الحزام) احتفظ به الى الغد .. انما احتفظ به ..

احمـد — نعم .. نعم .

الشيخ — اياك أن يضيع منك فهذا كل ما لدينا الآن كحجة ضد القاتل ..

احمـد — ساحتفظ به .

الشيخ (وهو ياخذه ثانية) اتركه عـندى .

أحمـد ـ كما تريد ..

الشيخ (مترددا) بل اتركه عندك .. انما ..

احمـد ـ ساحتفظ به كن مطمئنا يا سيدى الشيخ

الشيخ (يلتفت الى الزوجة) : ساعمل جهدى لانتقم لك من القاتل يا رحمة .. ساعمل جهدى . لن يذهب القاتل بعيدا .. سترين ..

الزوجة (وهى تنتحب فى صمت) الله يحفظك يا سيدى الشيخ (الشيخ يغادر المكان ومن ورائه حارسه الخاص)

المشهـــد الثـانى

نفس الاشخاص ما عدا الشيخ وحارسه الخاص

العـــم (وهو يربت على كتف رحمة) أسكتى يا رحمة اسكتى ، ربنا موجود .. لابد من أن يأخذ الثأر مـن الظالم ..

رحمـة ـ وماذا يهمنى أنا من ذلك ..؟ وماذا يهم الاولاد الذين سيتربون من غير أب ..

العـــم ـ ربنا رحيم .. ربنا رحيم ..

رحمـة ـ لقد كنت أقول له دائما ان نهايته لن تكون طبيعية .. عليه أن يبتعد عن الشيخ ، وعن أصحاب الشيخ

احمـد (يتنحنـح) ..

رحمـة ـ لا تواخذنى يا سيدى .. انما انت واحد منا انا أعرف انك لست مثلهم .. القرية كلها تعرف أنك رجـــل

أحمـد ـ ولكن يا سيدتى ..

رحمـة ـ لاخوف عليك من أعوان الشيخ هما أيضا منا .. ولذا هو لا يعتمد عليهما .. ان له حارسه الخاص ..

أحمـد (يلتفت الى الحارسين) هيا انصرفا الآن ..

ادريس ـ كما ترى يا سيدى الكاتب ... (ينصرفان)

المشهـد الثالـث

نفس الاشخاص ما عدا الحارسين

العـم ـ ولكن يا رحمة .. كلام من هذا القبيل لا ينفعنا ، نحن اناس مساكين ..

رحمـة ـ ولكن (بوعزة) لم يكن يريد أن يكون رجلا مسكينا ، كان يريد أن يكون غنيا ، ومن أصحاب المخزن ، ويريد أن يكون رجلا عصريا ، ويحلم بالسيارة ، وباللباس العصرى ..

العـم ـ الله يرحمه .. كان كذلك منذ صغره ..

رحمـة ـ النتيجة ها أنت تراها ، لماذا لا يكون مثل باقى عباد الله .. ؟

العـم ـ كل شىء مقدر ومكتوب .. الان هو فى العالم الآخر.. علينا الا نحاسبه .. ليغفر الله لنا وله ..

رحمـة ـ ونحن فى الدنيا ، ومصائب الدنيا .. هو استراح

ونحن ترك لنا مصائبه .. (تحرك رأسها) ماذا ستقول القرية ؟ قل لى ماذا سيقولون غدا ..؟

العـــم ـ الله يستر عيوبنا .

رحمـــة ـ كل شيء واضح .. الجميع يعرف أن الشيخ يستخدمه لاغراضه .. وكل القرية الآن سترتاح منه .. وسابقى أنا معهم وجها لوجه (تضع يدها على خدها وهى تحرك رأسها) .

أحمـــد ـ ومن تظنينه القاتل ؟

رحمـــة ـ لست أدرى ؟

أحمـــد ـ وهذا الحـزام ؟

رحمـــة ـ وجدته بيد زوجى ..

أحمـــد ـ هل خنقه به ؟

العـــم ـ يظهر انه مات مخنوقا .. لقد كانت عيناه جاحظتيـن قليلا قبل ان اغمضهما .

أحمـــد ـ وأين كنت أنت عندما قتل ؟

العـــم ـ أتشك فى ..

أحمـــد ـ لا .. مجرد سؤال .

العـــم ـ لقد كنت ببيتى عندما قدمت الى رحمة .

رحمـــة ـ ليس لبوعزة من أهل غير عمه . ولم ارد ان أخبر احدا قبل أن أخبره هو ..

العـــم ـ وجئت اليك لتخبر الشيخ .

رحمـة - ويظهر أن الشيخ كان يعرف أنه قتل قبل أن يعرف ذلك احـد .

العـم - اسكتى يا امرأة

احمـد - ما أظن .. لقد كان نائما .. وتركت له الخبر عند الحارس .

رحمـة - ومع ذلك ، عين الشيخ لا تنام مثل عين ربنا .

العـم - استغفرى الله يا رحمة .

رحمـة - ومن غيره يكون

العـم - لا .. لا .. لاتقولى ذلك .. عهدى بك عاقلة يا رحمة ..

رحمـة - اسكت يا سيدى .. لقد كان زوجى الشاهد الوحيد فى قضية سرقة السماد .. وكان لابد من ابعاده .

العـم - كفى .. كفى

رحمـة - القضية عندما وصلت الى القايد .. اصبحت خطيرة .. وحتى لايتحدث بوعزة عن الشيخ عندما يعذبونه كان لابد من ابعاده .. القضية واضحة .. واضحة .

العـم (يتجه الى أحمد) لاتأخذ كلامها ماخذ الجد انها مضطربة لاتعرف ما تقول .. انها ليست فى حالة طبيعية .

رحمـة - لاعليك يا عمى .. السيد أحمد مثلنا .. أنا أعرفه قبل اليوم .. حظه نحس مثل حظنا .. لاخوف عليك منه (فجأة) وليكن ما يكون ، ماذا سأخسر ؟ لاشىء .. أنا لا ينتظرنى الا التعب والشقاء .. نحن مساكين .. نحن أشقيـاء ..

العـــم ـ الله يرحمنا .. الله يرحمنا ..

رحمـة ـ وعباده يعذبوننا .. كم أنت طيب يا عمى .. كم أنت طيب ..!

العـــم ـ الزمان يا رحمة .. الزمان يجعلنا .

رحمـة ـ نحترس ، ونعامل الناس فى حذر لنترك المجرمين يدورون بيننا .. النهاية كما تراها يا عمى .. لقد كان زوجى يخدمه طيلة حياته .. والنتيجة ها أنت تراها .. بل انه سيخدمه بموته أيضا .. مسكين أنت يا بوعزة لماذا لا تعش مثل عباد الله .. وتمت مثلهم بعد أن تكبر الاولاد ، وتترك كل واحد منهم فى بيته لماذا ؟ (تأخذ فى النحيب) .

العـــم (يربت على كتفها) مسكينة انت يا رحمة .. مسكينة .. (يتجه الى أحمد) سامحها يا سيدى على كل ما قالت ، انها تهذى . لقد كانت تحب زوجها ، ولكن امر ربنا نزل ربنا اراد ذلك .. انا لله وانا اليه راجعون .. لاشك انك ستذهب الآن ياسيدى ، سامحنا لقد ازعجناك ..

أحمـد ـ لا تكلف نفسك بمثل هذه الاقوال .. هذا واجب ..

العـــم ـ نحن دائما نتوسم فيك الخير ، ونقصدك لتقوم ببعض شؤوننا ..

أحمـد هذا يشرفنى .. شكرا .. شكرا .. سانصرف الآن .

العـــم ـ احتفظ بالحزام ان أمره يبدو غاية فى الخطورة ..

أحمـد ـ يبدو ذلك .. الى اللقاء يا رحمة ..

رحمـة ـ مع السلامة يا سيدى ..

ســتـــــار

لوحة ثانية :

حجرة متواضعة . يبدو أنها بالفعل لمثقف منشغل الفكر ..فالكتب مبعثرة بصورة تجعلك تحدس أنه لا وجود لامرأة بهذا البيت .

أحمد يتقدم ابراهيم (المعلم بالقرية)

المشهد الرابع :

أحمد وابراهيم

أحمد - استقطبني نورك يا ابراهيم في هذه الساعة المتأخرة من الليل .

ابراهيم - اذن أنت فراشة هذه الليلة .

أحمد - كما ترى

ابراهيم - على أى نور كنت تحوم قبل نورى .. ؟

أحمد - اتركنا من ذلك ..

ابراهيم - اسرار الشغل .. اعرف .. اعرف ..

أحمد - لا شغل ولا يحزنون ..

ابراهيم - اذن ، أرق .. كم هي مزعجة هذه القرية ، في كثير من الاحيان أقول لنفسي عندما يطلع نور الشمس سأغادرها الى الابد . ولكن ما أن يصبح الصباح حتى أغير رأيي .. لست أدرى اى سر في هذه القرية يغرى بالبقاء ..

أحمد - الناس المساكين ..

ابراهيم — لا تستهزىء ..

احمـد — وماذا اذن .؟ الطبيعة الخلابة .؟!

ابراهيم — أنت تعرف أنني لا استريح للطبيعة الصامتة

أحمـد — الهواء النقى اذن ؟

ابراهيم — دعنا من هذا . هل تريد أن أحضر لك شايا ؟

أحمـد — لا أريد أن أسهر أكثر .

ابراهيم — ما هذا الحزام الذى بين يديك ؟ (يأخذه من يده)

أحمـد — وجد مع القتيل ..

ابراهيم — قتيل ..؟!

أحمـد — بوعزة .. الشخص القوى .. صاحب الشوارب السود ..هل تعرفه ؟

ابراهيم — « رجل » الشيخ الاول ؟

أحمـد — تماما ..

ابراهيم — قتـل ؟

أحمـد — أو انتحر ..

ابراهيم — كـيف ..؟!

أحمـد — قتل مخنوقا ، ووجد بيده هذا الحزام

ابراهيم — اذن انتحر .

أحمـد — رجل من ذلك النوع لا ينتحر ..

ابراهيم — اذن قتل .

أحمـد – والحزام بيـده .

ابراهيم – ومن القاتل ..؟

أحمـد – علم ذلك عند ربنا ..

ابراهيم – هل حضر الشيخ ؟

أحمـد – حضر .. واستمع الى الشهود ، وسلمني الحجة ، هذه التي بين يديك ..

ابراهيم – القرية أخذت تتحرك .. أخذت تنتقم لنفسها ..

أحمـد – لا تحلم كثيرا

ابراهيم – اذن مـن ؟

أحمـد – الشيـخ .

ابراهيم – الشيـخ ؟!

أحمـد – هذا ما تقوله زوجة القتيل ..

ابراهيم – وهل صحيح أنه قتله ..؟

أحمـد – وأنت ما رأيك ؟

ابراهيم – دائما تتهرب من الاجابة . لقد صنعت منك المهنـة حذرا يمشي على رجلين .

أحمـد – وأنت ماذا صنعت منك مهنتك ؟ مخبرا ..؟ دعنا من هـذا .

ابراهيم – ولكن موضوعا مثل هذا يستحق الاهتمام ، ماذاستقول القرية غـدا ..؟

أحمـد – ستفرح لان « رجل » الشيخ مات .

ابراهيم ـ تماما ..

أحمـد ـ ولكن هناك « رجال » ..

ابراهيم ـ مثـلا ؟

أحمـد ـ هذا الذى قتل بوعزة ..

ابراهيم ـ حقـا

أحمـد ـ ومتى اصبح خطرا على الشيخ أرسل اليه « رجلا » آخر .. « الرجال » كثيرون يا سيدى ابراهيم ..

ابراهيم ـ ولكن الى متى ؟

أحمـد ـ الى أن تتحرك القرية .

ابراهيم ـ كفى استهزاءا ..

أحمـد ـ لا أملك غيره الآن ؟

ابراهيم ـ يلزم التفكير جديا فى الموضوع

أحمـد ـ أنت لاتفعل الا هذا . الدليل هو هذه الكتب المفتوحة التى تقرؤها .

ابراهيم ـ ولكن أنت تعلم أمرنا نحن المثقفين ..

أحمـد ـ لا تستطيعون القيام بشيء

ابراهيم ـ بل على العكس نحن نعمل على التوعية .. هذه امانة فى عنقنا نحن نحتفظ بها الى أن يظهر الرجال ..

أحمـد ـ وأنتم الستم رجالا ..؟

ابراهيم ـ لا ندخل فى هذا الموضوع مرة أخرى

أحمـد ـ لمـاذا ؟ لانه عقيم ؟

ابراهيم - تحدثنا فيه كثيرا .. انت تعرف رأيي

أحمد - لا أعرفه تماما .. أنت كلما قرأت كتابا انتقلت الى مدافع عن آراء صاحب الكتاب . أما أنت فلم أعرف رأيك بعد ..

ابراهيم - حقــا ..

أحمد - ولكن الا تفكر في الزمن الذي ينفلت من عمرك

ابراهيم - ماذا اصنــع ؟

أحمد - لو استمعت الى زوجة القتيل .. لعرفت ماذا ينبغي أن تصنع ..

ابراهيم - ماذا قالت ؟

أحمد - اشياء كثيرة .. لقد كانت بليغة اكثر من اى كتاب منمــق ..

ابراهيم - أ الى هذا الحد تكره الكتب ؟

أحمد - ولكن لو سمعتها تتحدث لادركت مستوى الوعي الذي نتشدق به دائما ..

ابراهيم - ولكن وعيهم من غير تنظيم .. من غير ادراك للآفاق .. تفكيرهم محدود ..

أحمد - أنت تعتقد ذلك .. أما أنا فلا ..

ابراهيم - هل جاهرتك برأيها في الشيخ ..؟

أحمد - من غير أى جبن ..

ابراهيم - انها شجاعة اذن ..

احمــد ـ أو متهــورة ..

ابراهيم ـ هل كان معكم أحد آخر .؟

احمــد ـ عم القتيل فقط ..

ابراهيم ـ اذن هى تعرف أنها فى أمن

أحمــد ـ ولكن أنا .. ألست كاتب الشيخ الامين ..

ابراهيم ـ حقا .. ولكن حدس المرأة لايخطىء .. انها بحدسهـا تدرك انك غير مؤذ كالارنب الوديع

أحمــد ـ قد يكون .. (يتسلم منه الحزام)

ابراهيم ـ ماذا سيصنع به الشيخ غدا ؟

احمــد ـ ربنا يعلم ما ستتفتق عنه عبقريته العظيمة ..

ابراهيم ـ هو دائما عظيم ..

احمــد ـ ولكن رحمة اعظم ..

ابراهيم ـ لقد افتتنت بها يا هذا ..؟!

احمــد ـ اكثر من خمسة سنوات وانا اشتغل هنا .. ولم اصادف امرأة تتحدث بمثل ما تحدثت به .. تصور اننى كنت اقدر رجال القرية لشجاعتهم ، ولبراعتهم فى خروجهم من المواقف الحرجة ، ولم يسبق ان تعرفـت عـلى نسائهم .. اما الليلة فما رايته من هذه المرأة من تفكير سليم واضح قد استحوذ على .

ابراهيم ـ من غير شك لانها وضعتك موضع ثقة ..

احمــد ـ لا .. لانها كانت عارفة بنفسية زوجها ، وطموحه ، واعماله مع الشيخ .. انها المسكينة فى موقف لا تحمد

عليه ، انها تتصور نفسها قد اصبحت منبوذة تماما من سكان القرية بعد أن فقدت من يحميها ..

ابراهيم (ضاحكا) ها هى ذى مناسبة لتخرج من عزوبتك .. توكل على الله واخطبها من عمها .

أحمد ـ واسلمك انت اولادها

ابراهيم ـ انهم يقراون عندى فى المدرسة ..

أحمد ـ اذن أنهينا مشكلتها ..

ابراهيم ـ وهكذا يمكنك أن تستريح الآن ..

أحمد ـ انت لا تدرك مقدار امراة يخطف منها زوجها بغتة ، ويتركها مع الاولاد والعار ..

ابراهيم ـ انه يستحق ذلك .. لقد نكل بكثيرين .. وقتل الكثيرين .. لاتنس ذلك ..

أحمد ـ ولكن الزوجة والاولاد ما ذنبهم ؟

ابراهيم ـ مسؤولية ذلك على ابيهم لا عليك ..

أحمد ـ على الشيخ ..

ابراهيم ـ أو على الشيخ .. وفى جميع الاحوال لا عليك انت ..

أحمد ـ من بعض الوجوه علينا نحن أيضا ..

ابراهيم ـ لماذا نحن ؟ ربما انت

أحمد ـ أنا .؟

ابراهيم ـ لانك تساعده ..

أحمد ـ اكتب له فقط لانه امى ..

ابراهيم — حتى الكتابة .. لو رفضت ذلك لتعرقلت اعماله ..

أحمـــد — ولكنه سيجد « كتابا » آخرين بالمآت ..

ابراهيم — لو أن كل « كاتب » يرفض لما وجد من يساعده على غطرسته .

أحمـــد — لو .. ولكن

ابراهيم — لتبدأ أنت ..

أحمـــد — القضية تحتاج الى توعية وتنظيم .. (يقوم)

ابراهيم — تماما .. الى اين ..؟

أحمـــد — الى اللقاء ..
(ينصـــرف)

ابراهيم — ليلة سعيدة .

أحمـــد (يتوقف) هات الحزام

ابراهيم (ضاحكا) انه فى يدك .
(أحمد يخرج) .

ستـــــار

الفصل الثاني

لوحة ثالثة :

(غدا صباحا .
محل عمل الشيخ .
الشيخ يتصدر المكان .
عن يمينه أحمد من وراء طاولة الكتابة .
عن يساره حارسه الخاص) .

المشهد الاول :

الشيخ ـ الحارس الخاص ـ أحمد ثم الحارسين ـ

الشيخ (للحارس الخاص) ادخل على الحارسين .
(الحارس الخاص يخرج)

الشيخ (لاحمد) ـ هيء ورقة للكتابة .
(الحارس الخاص يدخل ومن ورائه الحارسين . يعود الى مكانه)

الشيخ (للحارسين) ستمسكان بالمتهمين فى قضية القتل التى جرت ليلة أمس . (لاحمد) اكتب الاسماء . أولا الحلاق .. ثم بائع العسل ، ثم الجيلالى البقار ، ثم عسو الدجايجى ـ ثم المعلم السيد ابراهيم (لاحمد) أعد على سمعهما كل القائمة .

احمد (يقرأ) الحلاق ـ بائع العسل ـ الجيلالى البقار ـ عسو الدجايجى ـ ثم المعلم السيد ابراهيم .

الشيخ (للحارسين) هل تتذكران هذه الاسماء جيداً . هيا احضرا كل واحد منهم على حدة من غير أن تخبرهم عن السبب .

الحارسان (يحركان رأسهما بالايجاب) ..

الشيخ ـ هل تعرفان أمكنتهم جميعا ؟

الحارسان (يحركان رأسهما) ..

الشيخ ـ هيا انصرفا ، واحملا الى الحلاق أولا لانه قريب من هنا ، ثم من بعد بقية المتهمين .

(الحارسان ينصرفان)

المشـــهـــد الثـــانـــى

نفس الاشخاص ما عدا الحارسين

الشيخ (لاحمد) قضية غريبة .. رجل في قوة بوعزة يمكن قتله بحزام من الجلد .. وبسهولة ..

أحمـــد ـ حقـــا ..

الشيخ ـ كنت أعتقد أن فأسا قوية ليست فى استطاعتها أن تأكل من رقبته ولكن ما أضعف الانسان ..

أحمـــد ـ سبحان الله

الشيخ ـ من تظنه القاتل من بين هؤلاء ؟

أحمـــد ـ لست أدري ..

الشيخ ـ الحزام سيظهر لنا المجرم . .

أحمـــد ـ حقـــا ..

الشيخ ـ ألا تعتقد ذلك ..؟

احمد ـ ربما ..

الشيخ ـ اذا استطعنا أن نأخذ الى هنا كل سكان القرية فاننا ولاشك سنحصل على القاتل .. بالتأكيد يمكننا ان نمسك بالقاتل ..

أحمد ـ ولكن اذا كان من قرية أخرى .

الشيخ ـ من له مصلحة في أن يموت ؟

أحمد ـ من يدري ..

الشيخ ـ ان من له مصلحة في أن يموت لابد أن يكون من قريتنا . وسكان قريتنا نعرفهم جميعا .. سنحقق معهم واحدا واحدا الى أن نجد القاتل ..

المشهد الثالث

نفس الاشخاص والحلاق
(الحارسان يدخلان)

الحارس ادريس (يدخل) سيدى ، الحلاق بالباب .

الشيخ ـ ادخله .
(الحارسان يدخلان الحلاق ثم ينسحبان) .

الحلاق ـ صباح الخير يا سيدى الشيخ

الشيخ (لا يرد على تحيته) ـ انت تعرف بوعزة

الحلاق ـ بوعزة ؟! من بوعزة ..؟

الشيخ ـ بوعزة بوشلاغم

الحلاق — ومن لايعرفه .. القرية كلها تعرفه

الشيخ — أنا لا أسألك عن القرية ، أنا أسألك أنت ، هل تعرفه؟

الحلاق — نعم يا سيدى الشيخ .. أنت تعرف أننى أعرف كل رجال القرية .. لانهم كلهم يحلقون عندى ..

الشيخ — لا تتحدث هكذا ..

الحلاق — وكيف ..؟

الشيخ — تسألنى كيف .. ؟ لقد أصبحت عنيدا فى هذه الايام؟

الحلاق (مستغربا) لا .. لا ياسيدى الشيخ

الشيخ — لما أرسلت فى طلبك فى الاسبوع الماضى لتحلق رأسى ماذا قلت للحارس ؟

الحلاق — قلت له سآتى حالا

الشيخ — ولماذا لم تأت حالا

الحلاق — لانى كنت قد شرعت فى حلاقة لحية زبون .

الشيخ — ألا يمكن أن تترك الزبون وتحضر الى اولا .

الحلاق — ولكن الصابون .. ونصف لحية محلق قلت لاتمم النصف الآخر ثم اسرع فى مشيتى فأصل اليك فى الوقت المناسب . وأعتقد أننى ركضت يومها لاصل مع الحارس تماما ..

الشيخ — ولكن لماذا أجبت الحارس بمثل جوابك أمام الزبون ؟ الم أقل لك أصبحت عنيدا ..؟ قل . هل تعرف بوعزة ؟

الحلاق — أعرفه يا سيدى الشيخ ..

الشيخ ـ لقد مات

الحلاق ـ مسكين .

الشيخ ـ لقد قتل

الحلاق (مرتعشا) قتل .؟!

الشيخ ـ ومن قتله ؟

الحلاق ـ لست ادرى

الشيخ ـ أنا ادرى (لأحمد) هات الحزام (يسلمه له)

الشيخ ـ هل هذا الحزام لك ؟

الحلاق ـ لا .. لا ياسيدى الشيخ

الشيخ ـ طبعا لا .. ضعه على وسطك

الحلاق (ما يزال يرتعد ، يضع الحزام على خاصرتيه)

الشيخ ـ هل هو فى مقياسك ؟

الحلاق ـ يمكننى .. يمكننى أن أقول انه .. انه

الشيخ ـ فى مقياسك أم لا ؟

الحلاق ـ نعم .. نعم ..

الشيخ ـ اذن الحزام لك ..

الحلاق ـ لا .. لاياسيدى الشيخ وأقسم لك ..

الشيخ ـ أأصدق عينى أم أصدقك أنت ؟

الحلاق (مايزال يرتعد) ماتراه يا سيدى الشيخ

الشيخ ـ هذا الحزام وجدناه مع الضحية ..

الحلاق (ينحنى عليه)

(الحارس الخاص يقترب من الحلاق)

الشيخ ـ هيا احملوه الى الخارج ، واحتفظوا به هناك . وادخل المتهم الثاني (الحارس الخاص يرفعه بين يديه كما لو يحمل ريشة ، ويخرج به) .

المشـهـد الـرابـع

الشيخ ـ الحارس الخاص ـ احمد ـ بائع العسل

(الحارسان يدخلان بائع العسل وينصرفان في حين يأخذ الحارس الخاص مكانه السابق)

بائع العسل ـ اسعد الله صباح سيدى الشيخ

الشيخ (كما العادة لايرد على التحية) قل ..

بائع العسل (السمين) نعم يا سيدى الشيخ

الشيخ ـ هل تعرف بوعزة بوشلاغم ..؟

بائع العسل ـ نعم اعرفه .. لقد اشترى مني العسل في السـوق المـاضى

الشيخ ـ وماذا قال لك ؟

بائع العسل ـ قال لى ان سيدى الشيخ يريد عشر كيلو من العسل

الشيخ ـ وماذا قلت له ؟

بائع العسل ـ قلت له على راسي وعيني .

الشيخ ـ وأعطيته العسل ؟

بائع العسل ـ عشر كيلوات

الشيخ ـ واخذت منه ثمنها

بائع العسل ـ نعم ياسيدى الشيخ عشر كيلوات

الشيخ ـ من غير أن تستحى

بائع العسل ـ ولكنها عشر كيلوا

الشيخ ـ هل تعرف ان بوعزة مات ؟

بائع العسل ـ الله يرحمه ـ مات مسكين ؟!

الشيخ ـ لا .. قتل

بائع العسل ـ قتل ..!؟ ومن قتلـه ..؟

الشيخ ـ تسألنى من قتله ؟

بائع العسل ـ (يرتعد) نعم ..

الشيخ ـ الم تاخذ منه ثمن العسل

بائع العسل ـ (مضطربا) نعم يا سيدى الشيخ

الشيخ ـ ومن يأخذ منه ثمن العسل الا يستطيع أن يأخذ منه روحه أيضا ..؟

بائع العسل ـ استغفر الله .. استغفر الله هل تظننى انا القاتل

الشيخ ـ ومن يكون اذن ؟

بائع العسل ـ لست ادرى .. انما أنا .. أقسم لك اننى .. اننى

الشيخ ـ كفى .. كفى .. خذ الحزام ..

بائع العسل ـ أيـن .. ؟

الشيخ ـ هناك على الارض ..

بائع العسل ـ (يأخذه..) انه حزام من جلد ..

الشيخ ـ لم أقل لك انه من ذهب . هل هو لك.؟

بائع العسل ـ لا .. هل تريد أن تضحك مني يا سيدى ان حزامين مثل هذا ليس في استطاعتهما أن يتما دورة كاملة على بطـنى ..

الشيخ ـ (متداركا الموقف) هل تعرف لمن يكون ..؟ لقد وجد مع القتيل .

بائع العسل ـ (مباغتا) لا .. لا ياسيدى الشيخ

الشيخ ـ (للحارس) خذه الى هناك مع الحلاق .. وادخـــل المتهم الآخر .

(الحارس يخرجه الى الخارج ثم يعود الى مكانه)

المشـــهـــد الخامـــس :

الشيخ ـ الحارس الخاص ـ أحمد ـ الجيلالى

(الحارسان يدفعان بالجيلالى البقار ، ثم ينصرفان)

الجيلالى ـ السلام عليكم

الشيخ ـ أين كنت ليلة البارحة ؟

الجيلالى ـ بالبيت كما هي العادة دائما .. ؟

الشيخ ـ ليس دائما ..

الجيلالى ـ أنت تعرف كل شيء يا سيدى الشيخ

الشيخ ـ ليس كل شيء .. من قتل بوعزة بوشلاغم

الجيلالى ـ اذن مات عدو الله .؟

الشيخ ـ ماذا تقول ؟

الجيلالى ـ لقد أراح الله منه العباد

الشيخ ـ اذن أنت تريده أن يموت ؟

الجيلالى ـ ومن فى القرية من لايريد ذلك .

الشيخ ـ ومن قتله !

الجيلالى ـ أعماله يا سيدى الشيخ أعماله ..

الشيخ ـ اتستهزىء منى ؟

الجيلالى ـ ولكنك انت تعرف الشكاوى التى يتقدم بها السكان اليـك ..

الشيخ ـ وما علاقتك أنت به على الخصوص ؟

الجيلالى ـ أنت تعرف يا سيدى الشيخ أنه فى الايام الاخيرة أخذ يبث بيننا الشقاق .

الشيخ ـ ولمـاذا ؟

الجيلالى ـ من اجل بهائمك

الشيخ ـ (دائما يتصنع جهله بما جرى) وما دخل بهائمى فى الموضوع .. ؟

الجيلالى ـ لقد قال باننى لم اتركها ترعى فى حقولى

الشيخ ـ وأنت ألم تصدها عن حقولك ..؟

الجيلالى ـ حاشا الله .. أنت تعرف اننى لا أتضايق منها أبدا ، بل اعتبرها بهائمى .

الشيخ ـ ولماذا تعتبرها بهائمك ..؟

الجيلالى ـ الى ماذا تريد أن تصل ياسيدى الشيخ كلما فتحت لك بابا الا واقفلته ؟

الشيخ ـ ولكنك صددت بهائمى عن حقولك

الجيلالى ـ لا .. لا تصدقه يا سيدى الشيخ .. المجرم لابد أن يصادف عقابه .

الشيخ ـ قل لى هل تترك بهائمك انت ترعى فى حقولك ؟

الجيلالى ـ لا .. انما بهائمك عندما يحلو لها أن تفعل فأنـا اتقبل ذلك بصدر رحب .

الشيخ ـ ولمـاذا ؟

الجيلالى ـ اليست مخلوقات الله ... انا دائما اقول لنفسى : « كلنا مخلوقات الله .. وسواء أكل مزروعات الحقل انسان أم أكلها حيوان » كلنا مخلوقات الله .

الشيخ ـ لاعلينا .. خذ الحزام من هناك ...

الجيلالى ـ (يرفع الحزام من الارض) ها هو ذا ..

الشيخ ـ ضعه فى وسطك

الجيلالى ـ (وهو يضعه) لمـاذا ؟

الشيخ ـ هل هو لك ؟

الجيلالى ـ أنت تعرف أننا لا نستعمل مثل هذه الاشياء .. انها لاهل المدينة ، تناسبهم ويناسبونها ، اما نحن فانت تعـرف ..

الشيخ ـ لقد وجدناه بجانب القتيل ..

الجيلالى ـ اذن أنت تشك فى أن أكون القاتل

الشيخ - طبعا .. من حقى أن أشك فى كل انسان يكرهه ..

الجيلالى - ولكن القتل ،، القتل يا سيدى الشيخ ليس هو الكراهية .. القتل لا يمكن أن يقوم به الا قتال

الشيخ - ومن هو القتال ؟

الجيلالى - الله أعلم .. أنت تعرف أننى لا يمكننى أن أقوم بمثل تلك الاعمال ..

الشيخ - (وهو يشير الى الحارس) خذه الى الخارج مع بقية المتهمين .

الجيلالى - ولماذا يا سيدى الشيخ ..؟ (الحارس يدفعه) لماذا ..؟ لـــماذا ..؟

الشيخ - ادخل المتهم الآخر .

(يخرجان)

المشــهــد الســادس :

الشيخ - الحارس الخاص - أحمد - عسو
(الحارسان يدفعان امامهما عسو الدجايجى ثم يذهبان فى حين يلتحق الحارس الخاص بمكانه)

عســو - صباح الخير

الشيخ - ما هى قصتك مع (بوعزة بوشلاغم) ..؟

عســو - (بعد تردد) طلب منى أن أدفع له فى عشرين دجاجة عشرين ألف فرنك .

الشيخ - ثــم ..

عســو ـ قلت له ليست عندى كاملة ، فلننتظر حتى نهاية السوق ولكنه لم يقبل

الشيخ ـ وماذا صنع ؟

عســو ـ مسكنى من ثيابى واشبعنى ضربا ورمى بى بعيدا

الشيخ ـ هل لديك شهود ؟.

عســو ـ لقد كان هناك عدد كبير من الناس ، ولكنهم لم يقبلوا أن يؤدوا الشهادة ..

الشيخ ـ ولمــاذا ؟

عســو ـ يخافون منه .

الشيخ ـ لماذا ؟ هل هو أسد ؟

عســو ـ لست أدرى ..

الشيخ ـ اذن انت ليس لديك شهود ؟

الشيخ ـ (لأحمد) أخرج المحضر .

عســو ـ هذه قضية انتهينا منها يا سيدى الشيخ لقد سامحته.

الشيخ ـ لمــاذا ؟

عســو ـ الله يغفر لنا جميعا ..

الشيخ ـ وهل هو يهتم ببيع الدجاج ؟

عســو ـ والبيض .. وكل شىء آخر .. انه يهتم بكل شىء ،

الشيخ ـ ماذا قال لك عن الدجاج ؟

عســو ـ لقد قال يومها ان الدجاج للسيد الشيخ . ولكنى لم

أصدقه .. لانه لو كان سيدى الشيخ يريد أن أبيع له دجاجة لما أرسل الى (بوعزة) بل لبعث فى طلبى مع حراسه وقدمت اليه حالا، ودفعت له ثمن الدجاج قبل أن أبيعه .. ولكن (بوعزة) سامحه الله تلك هى أفعاله دائما .. فكلما اراد شيئا قال انه للسيد الشيخ ..

الشيخ ـ وماذا قلت في شكايتك ايضا ؟

عسو ـ الله أعلم ..

أحمد ـ (يبحث فى بعض الاوراق ثم يسلم للشيخ ورقة منها) ها هو ذا ..

الشيخ ـ (يتفحصها كما لو كان يقرؤها) لقد قلت فى المرة السالفة : بأنه سب الدين أيضا .

عسو ـ نعم يا سيدى .. ولكن هذه حكاية انتهينا منها ياسيدى

الشيخ ـ هذه القضية تحتاج الى أن تأخذ العدالة فيها طريقها .. لابد من أن يعاقب .

عسو ـ (مباغتا) لا .. لا يا سيدى الشيخ الله يسامحه ..

الشيخ ـ ولكن لابد من تاديبه .. حتى لا يعود الى مثل هذه الاعمال (فجأة) .. ولذا قتلته يا عسو .

عسو ـ وهل هو مات ؟

الشيخ ـ كأنك لا تعرف .. ألم تقتله بيديك ..؟ وتريد الآن أن تظهر لنا تسامحك .. يالك من مجرم .. !

عسو ـ لا يحير جوابا ..

الشيخ ـ ولكنك نسيت حزامك هناك (بحركة آلية يضع عسو يده على حزامه)

عسـو ـ ها هو ذا حزامى ؟

الشيخ ـ انزعه من وسطك .. هات

عسـو ـ (يفك حزامه يسلمه للشيخ) ها هوذا

الشيخ ـ ناولنى الحزام الآخر ؟

(عسو يحمل اليه الحزام ، الشيخ يمسك الاثنين معا وهو يقيسهما) .

الشيخ ـ انه فى مثل حزامك .. ماذا تقول ؟

عسـو ـ ليس حزامى يا سيدى الشيخ .. ولم اقتله .. اقسم لك يا سيدى الشيخ

الشيخ ـ ولكن الحزام من مقاسك ..

عسـو ـ قد يكون ، ولكن ليس حزامى .

الشيخ ـ (غاضبا) ولمن هو اذن ؟ حزامى أنا ..؟

عسـو ـ لا أعرف ..

الشيخ ـ (للحارس) خذه مع الآخرين ..

عسـو ـ وحزامـى .. ؟

الشيخ ـ اغرب عن وجهى (الحارس يدفعه من كتفه ـ يخرجان)

المشهـد السـابـع :

الشيخ ـ الحارس الخاص ـ أحمد ـ المعلم ابراهيم

(الحارسان يدخلان المعلم ابراهيم وينصرفان ، ويلتحق الحارس الخاص بمكانه)

الشيخ – لقد مررت بالقرب من بيتك ليلة امس وكنت ما تزال مستيقظا ، وكان يمكن لاى كان ان يلاحظ ذلك ، فنور بيتك شاهد على ذلك .

المعلم – وهل هناك قانون يعاقب الذين لا ينامون مبكرا ؟

الشيخ – لا .. انما انت دائما تتصرف تصرفات لا تعجبنى

المعلم – مثلا ؟

الشيخ – أولا طريقة حديثك .

الشيخ – ثانيا .

الشيخ – (غاضبا) كفى .. لندخل فى الموضوع راسا ، خذ (يناوله الحزام) هل تعرف هذا ؟

المعلم – حزام من جلد ..

الشيخ – هل هو لك .. ؟

المعلم – هذا يتوقف على ما تريد ان تصل اليه

الشيخ – أريد ان اعرف صاحبه

المعلم – لست أنا صاحبه .

الشيخ – هل تعرف بوعزة بوشلاغم ؟

الملعم – اعرفـــه .

الشيخ – لقد قتل ليلة امس .

المعلم – لقد أصبح اولاده يتامى ، وامرأته أرملة ..

الشيخ – اهذا كل ما تجده مناسبا للموضوع

المعلم – وماذا أستطيع أن أقول ؟

الشيخ ـ ألم تقتله مثلا ؟

المعلم ـ ولماذا أقتله هل تربطنى به علاقة ما .. ؟

الشيخ ـ لقد أتيت ذات سنة تشكو من تصرفاته لما عاقبت احد ابنائه فى المدرسة .

المعلم ـ قلت ذات سنة .. وهل يعقل أن اقتله من أجل ذلك ..

الشيخ ـ والا لماذا تريد قتله ؟

المعلم ـ (لايجيب استخفافا) ..

الشيخ ـ من اجل العدالة .. أنا أعرف افكارك ، فأنت شخص لا أرغب فى وجوده بيننا .. أنت لا تصلح لنا بتاتا ..

المعلم ـ ولماذا ؟

الشيخ ـ أنت لست بفقيه .

المعلم ـ طبعـــا ..

الشيخ ـ ولاتحفظ القرءان

المعلم ـ طبعا ، ككثير من الناس .

الشيخ ـ ولا تريد أن تساعدنا ، فعندما طلبنا منك أن تغسل أحد أموات القرية لم تقبل . وعندما نطلب منك أن تأم بالناس الصلاة تقول بكل وقاحة انك جنب ، مع أننا نعلم أنك لست متزوجا .. ولا تريد أن تقرأ على أمواتنا فى المقابر يوم الجمعة ، ومع ذلك تقطن بيننا كمعلم .. ماذا تعلم ؟ الجهل ؟

المعلم ـ الجهل لا يعلم .. الانسان يخلق وهو جاهل ..

الشيخ ـ لماذا أنت هنا .؟

المعلـم ـ أنت تعرف أننى لست راغبا فى أن أبقى هنا .. مرارا طلبت منهم أن يبعدونى عن هذا المكان ، ولكننى لم افلـــح .

الشيخ ـ حتى أنا .. ولكن أظن هذه فرصتك

المعلـم ـ مـاذا ؟

الشيخ ـ لقد قتلت بوعزة

المعلـم ـ هكذا ، بكل بساطة !؟ وما هى حجتك ؟

الشيخ ـ قس هذا الحزام وستعرف .

المعلـم ـ (يأخذ الحزام) انه فى مقياسى تماما .

الشيخ ـ كل شىء واضح الآن يا معلم .

المعلـم ـ لقد صنعته من أجل اذن ..؟

الشيخ ـ لقد صنعه صانعه من أجل شـد البطـن ، ولكنــك استعملته لشد عنق القتيل .

المعلـم ـ وهل يعقل أن يقتل رجل فى ضآلة جسمى رجلا فى قوة بوعزة ؟ الا ترى أن هذا غير منطقى ..؟

الشيخ ـ لاشك أنك تحايلت عليه .. ولا تنقصك الحيل ... فكتبك مملوءة بها .

المعلـم ـ أنت لك فكرة خاطئة عن الكتب .. عليك أن تعيد فيها النظر فى يوم من الايام .

الشيخ ـ انا لايهمنى أمرها ، أنا اريد السلام فى هذه القرية، وأنت عنصر تشويش ، ثم اصبحت خطرا الى حد أخذت تقتل الناس الابرياء

المعلم — فكر فى ربنا أيها الشيخ .. انه يمهل ولا يهمل

الشيخ — أنت تعرف ربنا ..؟!

المعلم — كما تعرفه أنت ..

الشيخ — يا لك من عنيد ، ولكنك اليوم ستدفع ثمن عنادك..

المعلم — يظهر لك ..

الشيخ — ماذا هناك ؟

المعلم — لن اقول لك ..

الشيخ — لماذا ..؟

المعلم — حتى لا تحسب حسابك

الشيخ — كل شيء احسب له حسابه .

المعلم — سنرى ..

الشيخ — هات الحزام

المعلم — ألا يكون فى مقياسك أنت مثلا ، او فى ..

الشيخ — كفى .

المعلم — كما تريد

الشيخ — (باشارة من يده للحارس الخاص ـ فيتقدم نحو المعلم ابراهيم فيتجه هذا الاخير امامه نحو الباب)

الشيخ(لأحمد) لقد انهينا التحقيق الآن ، فالى بعد غد (يقوم ، ويتبعه حارسه الخاص ، ومن ورائهما أحمد)

ستار

الفصل الثالث

نفس اللوحة الثالثة :

(اليوم الرابع
محل عمل الشيخ
الشيخ يتصدر المكان
عن يمينه (أحمد) وعن يساره حارسه الخاص كما لو
أن منظر الفصل السابق لم يتغير) .

المشهد الاول :

الشيخ ـ الحارس الخاص ـ أحمد

الشيخ ـ (لأحمد) سنهيء محضر قضية قتل بوعزة

احمد ـ نعم (ينشغل باوراقه)

الشيخ ـ كما ظهر من التحقيق ان القاتل (احمد يرفع راسه من أوراقه) هو المعلم السيد ابراهيم

أحمد ـ ابراهيم ..!

الشيخ ـ هو نفسه ، لا أحد غيره

أحمد ـ ابراهيم ..!؟

الشيخ ـ لان الحزام ، الحجة الوحيدة التي بين ايدينا ، تثبت ذلك .

احمـد ـ والمتهمون الآخرون ..

الشيخ ـ سندخلهم لنتأكد من اننا لم نقع فى خطأ .. ثم نجعلهم يقسمون على أقوالهم ..

أحمـد ـ لقد أقسموا من قبل ، وفى امكانهم أن يقسموا فى كل وقت .

الشيخ ـ ولكن ابراهيم لم يقسم ، الم تلاحظ انت ذلك .

أحمـد ـ نعم ، يظهر انه ..

الشيخ ـ القاتل ، طبعا .. ثم انه هادىء ، على خلاف المتهمين الآخرين ، لقد كان يحدثنا من غير أن يظهر عليه اى اضطراب .

احمـد ـ الا يكون العكس ، بمعنى انه لم يقتل ، ولذا لم يضطـرب .

الشيخ ـ (ضاحكا) ما شاء الله ، ألا تفكر قليلا يا احمد ان القاتل لم يكن الا واحدا ، كما اخبرتنا (رحمة) لا اربعة اشخاص . أربعة اشخاص كلهـم اضطـربوا وخافوا بل فيهم من أغمى عليه . أما المتهم الحقيقى ، فلم يحصل له اى اضطراب .

احمـد ـ لعل ذلك يرجع الى طبيعة الاشخاص .

الشيخ ـ لا تفهمنى بان المعلم ابراهيم ليس انسانا كبقية الناس

أحمـد ـ ليس هذا ما أرمى اليه ، انما

الشيخ ـ هىء الورقة واكتب .

احمـد ـ لقد قلت اننا سندخلهم لنتأكد من عدم وقوعنا فى اى خطأ .

الشيخ ـ تماما (لحارسه الخاص) ناد على المتهمين (يخرج الحارس الخاص) .

الشيخ ـ انما الشيء الذى يقلقنى هو انه كيف استطاع المعلـم الضعيف البنية ان يقتل رجلا فى مثل الثور ؟

احمـد ـ حقا ، كيف يمكنه أن يفعل ؟

الحارس (يدخل) ها هم أولاء

الشيخ ـ ادخلهم .

المشـــهـــد الثـانى

الشيخ ـ الحارس الخاص ـ المعلم ابراهيم ـ عسو الدجايجى الحـلاق ـ الجيلالى البقار ـ بائع العسل .

(يدخل المتهمون الخمسة ويقفون بالقرب من الحارس الخاص وعند الباب يقف الحارسان الآخران) .

الشيخ ـ ان من بينكم الآن يوجد القاتل الحقيقى ، فمنْ هو؟ (لا يجيبون)

الشيخ ـ لاتنسوا أن القاتل بصمته الآن عـن قول الحق سيقتل شخصا آخر برىء . عليه ان يعترف ، فلربما وقع تخفيف العقاب فى حقه .

ابراهيم ـ أعتقد أن ..

الشيخ ـ (مبتسما) كنت مقتنعا بأنك ستتحدث ..

ابراهيم ـ لم أتمم كلامى بعد

الشيخ ـ نعـم ..

ابراهيم ـ اعتقد أنا الشخص الوحيد الذى يدينه الحـزام ، فأنا وحدى المتهم الحقيقى .

الشيخ ـ تماما

ابراهيم ـ اذن بقية المتهمين عليهم أن ينصرفوا

الشيخ ـ ومن يعطى الاوامر أنت أم أنا ؟

ابراهيم ـ المنطق . فمن المنطق الا يبقى هنا الا من كان الحزام من مقياسه .

عسو ـ حتى أنا الحزام من قياسى .

الحلاق ـ وأنا ايضا ..

الشيخ ـ (يضطرب) اسكتا انتما ، من طلب منكما أن تتكلما.

ابراهيم ـ اذن الحجة واهية يا سيدى الشيخ

الشيخ ـ لمـاذا ؟

ابراهيم ـ لان الحزام في مقياس ثلاثة اشخاص وعليك أن تثبت اننا جميعا نمتلك نفس الحزام ، أو اننا جميعا قتلناه وعليك أن تثبت هذا ايضا .

الشيخ ـ من قال ان الحزام فى مقياسكم جميعا ؟ (لابراهيم) الحزام هو من مقياسك انت .. انت فقط .

ابراهيم ـ ولماذا هؤلاء هنا اذن .؟ بل لماذا بقوا طيلة هذه المدة فى السجن .

الشيخ ـ لماذا تتدخل فى شؤون غير شؤونك ؟

ابراهيم ـ حقا ، انما المنطق ..

الشيخ ـ كفانا من هذا المنطق .. لم ترعينى عنيدا مثلك .

ابراهيم ـ اذن أنا القاتل .. ؟

الشيخ ـ نعم .. نعم ..

ابراهيم ـ حسنا ، ماذا تنتظر ..؟

الشيخ ـ أن تعترف بذلك .

ابراهيم ـ اما هذا فلا ..

الشيخ ـ وانتـم ؟

(لايجيبون)

الشيخ — حسنا ، لقد انتهى كلامكم .. اصابكم البكم ..

الجيلالى — يظهر أن المعلم فيه الكفاية

الشيخ — أنت الآخر تعتقد أنه القاتل

الجيلالى — أستغفر الله ، لم أقل هذا ، انما هو وحده الذى يظهر أن سيدى الشيخ يتهمه .

الشيخ — أنا أتهمكم جميعا .

ابراهيم — حتى ولو بغير حجة .

الشيخ — ألا تكرهون جميعا الرجل القتيل ..؟

الجيلالى — من فى القرية يحبه ..؟ لو سألــت أولاده أيضـا لاجابوك بأنهم يكرهونه ..

الشيخ — لـماذا ؟

الجيلالى — أفعاله يا سيدى الشيخ

الشيخ — ولهذا اتفقتم على قتله ..

الجيلالى — لا .. لا .. القتل أعوذ بالله ..

الشيخ — ومن قتله ؟

ابراهيم — من له مصلحة فى قتله ؟

الشيخ — القرية كلها اذن ؟

الجيلالى — وهل يعقل أن تقتل القرية كلها رجلا ؟

الشيخ — كلفت أحدهم بذلك ؟

ابراهيم — بل الشخص الذى له مصلحة فى قتله كلف آخر ليقوم بذلك .

الشيخ — ومن هو ؟ انه بينكم ..

ابراهيم — ابحث تجد ..

الشيخ — الا تريدون أن تعترفوا ، سأحبسكم من جديد ،

وسأمنع عنكم الطعام لمدة ، وسترون انكم كنتم مخطئين عندما لم تعترفوا بالحقيقة من أول يوم .

الحلاق ـ أقسم بالله العلي العظيم لم أقتله .

الشيخ ـ (يلتفت الى بائع العسل) وأنت ؟

بائع العسل ـ الله شهيد على أنني لم أقتله .

الشيخ ـ (يلتفت الى الجيلالي البقار) وأنت ؟

الجيلالي ـ والله العظيم لم أقتله .

الشيخ ـ حسنا ، (يلتفت الى عسو الدجايجي) وأنت ؟

عسو ـ والله العظيم لم أقتله .

الشيخ ـ (للمعلم ابراهيم) وأنت ؟

ابراهيم ـ حتى أنا لم أقتله .

الشيخ ـ (يلتفت الى احمد) ماذا قلت لك ، انه الوحيد الذى لا يقسم ، ألم تتأكد بعد بأنه القاتل .

ابراهيم ـ دعك من ذلك يا سيدى الشيخ . اصرف هؤلاء الناس الى اشغالهم ، ولك أن تفعل بي ما تشاء .. لقد قال احدهم انك تتهمني أنا ، فلماذا هذه المراوغة

الشيخ ـ لتعترف على رؤوس الاشهاد بانك القاتل

ابراهيم ـ انت تعرف أنني لست قاتلا .

الشيخ ـ (مزمجرا) اذن أنت تتهمني بأنني اكذب عليك .

ابراهيم لك أن تعتبر ما تشاء ، انما أنا لست بقاتل . وعلينا أن نقف عند حد ، لقد أتعبتنا كثيرا باقوال فارغة..

الشيخ ـ (حانقا) أقوال فارغة ..!؟ سترى .

ابراهيم ـ ماذا سارى ؟ سترسلني الى القايد مع محضر يثبت انني القاتل .

الشيخ ـ تماما ..

ابراهيم ـ ولكنه لا يستند على حجة صحيحة ، انك مخطىء أيها الشيخ ، مخطىء عندما تريد أن تفكر بأن الامور ستجرى على ما تتصوره اصرف هؤلاء الناس أولا فلهم اشغالهم .

الشيخ ـ وأنت ؟ أليست لك أشغال ؟

ابراهيم ـ والقاتل .. أتبقى من غير قاتل ؟ لقد بحثت لى عن شغل آخر ، فأنا اشكرك على هذه المهمة .. حقا ، انها تحتاج الى عضلات وبنية قوية ، خاصة اذا كان الضحية شخص فى قوة بوعزة ، ولكن ما الحيلة ؟ والحزام فى استطاعته أن يصنع العجائب ؟ يقتل بوعزة ويتهمنى أنا .. ان أمر الحزام عجيب ، لاندرى ما هى نهاية عجائبه .

الشيخ ـ كفى . (يلتفت الى الآخرين) أما انتم ، فبعد أن أديتم القسم على أنكم لم تقتلوا بوعزة فاننى اسمح لكم بالخروج ، ولكن اياكم أن تعودوا الى أفعالكم السابقة .. هيا انصرفوا .. (يخرجون ، بصحبة الحارسين).

المشـــهـــــد الثـــالث

الشيخ ـ الحارس الخاص ـ أحمد ـ ابراهيم .

المعلـم ـ هذا حسن . سنبقى وجها لوجه من غير أن يشوش علينا أحد ..

الشيخ ـ الى ماذا تريد أن تصل ..؟

المعلـم ـ الى لاشىء .. أنا أعرف أننى لا أعجبك ، ويسرنى جدا أنك مع ذلك تهتم بى الى هذا الحد .

الشيخ ـ انا اهتم بقضية الامن فى هذه القرية

ابراهيم ـ وأنا عنصر فوضى

الشيخ ـ ويلزم أن نبعد عنا الفوضى حتى لا يستفحل أمرها

ابراهيم ـ ولكن الا تفكر فى الفوضى التى تملأ دماغك وتعمل على ازالتها .. كن عاقلاً ، وارجع عن افعالك ..

الشيخ ـ (مصعوقا) كيف ؟! اتنصحنى أنا .. هل تعتقد اننى تلميذ من تلاميذك ..؟ أنسيت مع من تتحدث ..؟

ابراهيم ـ مع انسان يهتم بقضية أمن هذه القرية لا أقل ولا أكثر (يسمع جلبة فى الخارج)

الشيخ ـ (يلتفت الى الحارس) انظر ماذا هناك ؟
(قبل أن يخرج الحارس الخاص يدخل الحارس ادريس)

الحارس ـ (لاهثا) ان سكان القرية كلهم هنا .. انهم يصيحون ويهتفون ..

الشيخ ـ وماذا يريدون ؟ من يتزعمهم ؟

ادريس ـ امرأة يا سيدى .. انها رحمة ..

الشيخ ـ (يتخذ صبغة الجد) لاشك أنها تطالب بدم زوجها .. اسرع ادخلها الى هنا ..
(يخرج ادريس)

الشيخ ـ (للمعلم ابراهيم) ان القرية كلها ضدك ، انهم يريدون أن يروك مشنوقا ، ولكننى لن اسمح لهم بذلك ، بل سأبعثك الى القيادة . وهناك يبثون فى أمرك . فأنا لا أريد أن تتكرر المهزلة الماضية التى ذهب ضحيتها أحد المتهمين ، فتلقيت تأنيبا من السيد القائد ..

ابراهيم ـ انك لا تنس دروس الماضى .. انا ايضا افضل ان تتاح

لى فرصة الدفاع عن نفسى ..

الشيخ — أما هذه فما أعتقد أنها ستنفعك بشىء

(تدخل رحمة مع عمها)

المشــهــد الرابـــع

نفس الاشخاص ورحمة وعم القتيل

الشيخ — (مظهرا الانشراح) لقد مسكنا القاتل .. ها هو ذا قاتل زوجك .. ألم أقل انه لن يذهب بعيدا ..؟

رحمــة — (فى استخفاف) هذا ..؟ المعلم .؟!

الشيخ — نعم ، هو .. لقد كاد ان يعترف .. ولكن لا علينا سواء اعترف أم لا ، فالحزام فى مقياسه ..

رحمــة — (ضاحكة بالرغم منها) اتضحك منى يا سيدى الشيخ!؟

الشيخ — لمـــاذا ..؟

رحمــة — وهل فى استطاعة النملة أن تقتل فيلا .. ومن غير أن تحدث أية ضجة ..؟! لا .. لا .. يا سيدى الشيخ . ليس هذا وقتا يصلح للضحك ..

الشيخ — ميف .؟! الا تصدقيننى ؟!

رحمــة — ولكن هل من المعقول أن يقتل هذا الرجل زوجى بحزام من الجلد ؟

الشيخ — أنت لا تعرفين المعلمين ..

رحمــة — لا ..

الشيخ — انهم ملاعين يملأون رؤوسهم بكثير من الحيل الغريبة التى لا تخطر على بال حتى على بال ابليس ..

رحمــة ـ (تلتفت الى عمها)

العــم ـ (يحاول ان يتكلم)

الشيخ ـ (يقاطعه) كنت أعتقد أنك ستفرحين لانني ألقيت القبض على قاتل زوجك باسرع ما يمكن من الوقت ؟

رحمــة ـ ولكن

الشيخ ـ مع الاسف الشديد .، الا انني مع ذلك لن اسلمه الى سكان القرية مهما حاولوا أن يملأوا المكان هتافا وصياحا ، لابد من ارساله الى السيد القائد .

رحمــة ـ دعك من كل ذلك يا سيدى الشيخ .

الشيخ ـ كيـف .؟!

رحمــة ـ اترك المعلم ينصرف الى شغله ، وكف عن كلام من هذا النوع ..

الشيخ ـ ولمـاذا ..؟

رحمــة ـ ان سكان القرية كلهم هنا يطالبون باطلاق سراحه حـالا .

الشيخ ـ هم مع المعلم اذن ..؟

رحمــة ـ بل مع الحق يا سيدى الشيخ

الشيخ ـ وانـت ؟

رحمــة ـ وأنا أيضا .. فلما اقبل الينا المتهمون الآخرون علمنا الحقيقة .. فقامت القرية تستنكر أن يكون الضحية ، فى هذه المرة ، معلم القرية الذى لم نر منه الا الخير، وبدل أن نجازيه على تعليم ابنائنا نتهمه بعملية قتل .. وبذلك يموت بقريتنا فى ظرف اربعة ايام بريئان .. لا .. لا يا سيدى الشيخ ..

العــم ـ اعمل معروفا يا سيدى الشيخ واحم القرية من الفوضى

واصرف المعلم الى حال سبيله ..

الشيخ — هذا هو رأس الفوضى ، علينا الا نتركه هنا يعبث بعقول الناس .. والفرصة مواتية (لرحمة) الاتفكرين في الانتقام من قاتل زوجك ؟

رحمـة — على كل حال لن يكون المعلم ابراهيم

الشيخ — صدقيني يا رحمة انه هو .. وان الحزام ..

رحمـة — (تقاطعه) اى حزام ..!؟ دعك من ذلك ، ان الرجـل برىء .. لا يستطيع ان يقتل حتى دجاجة ..

الشيخ — بلى يا رحمة انت لا تعرفينه على حقيقته ، انه القاتل .. ولا أحد غيره .. حتى انى استطيع ان اقسم لك على ذلك.

رحمـة — استغفر الله .. انه ليس له مصلحـة فى السمـاد المسروق يا سيدى الشيخ ..

الشيخ — (باستغراب) وماذا تعرفين أنت عن السماد المسروق؟!

رحمـة — الذى يعرف عنه ذهب الى رحمة ربنا .. انا افضل الا اعرف عنه شيئا حتى لا التحق به ..

ابراهيم — السماد المسروق .؟!

الشيخ — (يقاطعه بصرامة) اسكت انت ، لا دخل لك فى ذلك

ابراهيم — ولماذا .؟ ربما هذا عنصر ينفعنى فى الدفاع عـن نفسى .. فلنبحث جميعا عمن له مصلحة فى هذا السماد المسروق .. (لرحمة) قلت سمادا مسروقا .. ومن سرقه ؟

الشيخ — (يتدخل) لا تحدثيه ... انه لا يستحق الالتفات اليه بتاتا .. انه كالطاعون

رحمـة — (وهى تتهيأ للانصراف) ان سكان القرية يا سيدى

يزداد هتافهم وصياحهم من اجل اطلاق سراحه

العـــم - عجل يا سيدى باطلاق سراح الرجل قبل ان يحدث ما يسبب الفوضى فى هذه القرية ..

الشيخ - وأنت ما رأيك ؟

العـــم - أنت تعرف كل شيء يا سيدى الشيخ .. لابد من ان نسكت السكان فهذا فى نظرى اهـم شيء .. امـا الحقيقة فلا يعلمها الا ربنا .

ابراهيم - والذين لهم مصلحة فى السماد ..

الشيخ - (لابراهيم) هيا انصرف .

ابراهيم - هكذا ، وبسرعة .؟!

الشيخ - لقد نجوت هذه المرة .. فالى مرة اخرى .

رحمـة - انت رجل حكيم يا سيدى الشيخ .

العـــم - الله يجازيك عنا خيرا .

(يخرجون .. تسمع تهليلات الفرحة من سكان القرية يضع الشيخ رأسه بين يديه - أحمد يقفل ملفا بين يديه فى ابتسامة تموت على شفتيه لما تلتقى عيناه بعينى الحارس الخاص ، ترتفع تهليـلات السكان فى الوقت الذى ينزل فيه ستار النهاية .

29 - 30 غشت 1972